موكب عزرائيل

سامي سراج الدين

موكب عزرائيل / رواية
سامي سراج الدين
الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١اش المعهد الديني ، المرج
موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
عبد الرحمن حافظ
تدقيق لغوي :
ضمة جروب
رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٣٤٠٢
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ٠٢٣- ٠

موكب عزرائيل

سامي سراج الدين

رواية

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أبي وأمي

وإلى كل من ساهم في خروج هذا الكتاب

بشكله الحالي

لم يشعر يومًا أن عقارب ساعته مزعجة إلى هذا الحد... لا يسمع إلا صوهما وصوت شهيق وزفير شمس في الجهاز... كل نفس يعني أملًا جديدًا، وكل ثانية تمر تعني عمـــرًا مـسـضافًا... غاليًا... ربما لا يجده في الثانية التي بعدها. كأنما عمر شمس منذ فجر يوم ميلادها يتم اختصاره في بضع ثوان، يسمع خطاهـــا الثقيلة وهي تدور في ساعة يده.

يسمع من بعيد صوت سارينة موكب الرئيس... لا يـــرى الرئيس، والرئيس لا يراه... لكنه يسمع سارينة الموكب. يلمس شعر شمس الأسود الغزير... مازالت خصلاته تنبض بالحياة... يحسها في راحة يده... ينزل بيده إلى خدها... مازال يشع دفئًا كما كان دائمًا.



١

ينظر إبراهيم إلى ساعته ويتأفف... سوف يتأخر ولن ينتظره الأولاد على الغداء، فالأولاد في هذا السن الصعب لا يصبرون على الجوع. يخرج علبة السجائر محلية الصنع من جيبه، ويشعل سيجارة ... تمضي حوالي عشرة دقائق يقضيها وهـــو شـــارد النظر، يخرج السيجارة ويدخلها في فمه على فترات متباعـــدة، ولا يكاد يشعر بمذاقها... ثم ما يلبث أن يعود إلى الدنيا علـــى صرير محرك الأوتوبيس الذي يعلو أي صوت آخر في وســـط الزحام.

إنه المشهد اليومي في حياة إبراهيم حين ينتهي مـــن عملـــه بمصلحة الضرائب. يركب الأوتوبيس المكدس بأكوام من البشر من مختلف الأعمار والفئات (أغلبهم من الطلبـــة، والعمـــال، وصغار الموظفين) ملابسهم قاتمة الألوان حتى لا تكاد تميزهـــا، تفوح منها رائحة عرق نفاذة... لحى الرجال نصف محلوقـــة، والنساء أغلبهن بدينات، وجوههن ملطخـــة بكميـــات مـــن المساحيق الرخيصة من كل الألوان، ويضعن علـــى رؤوســـهن طرحة صغيرة لتحجب ما تبقى لهن من جمال... صـــامتون في أغلب الوقت لا يتكلمون إلا ليلعنوا السائق حين يضغط علـــى الفرامل بقوة زائدة، أو ليشكوا بلهجـــة ناعـــسة مـــن الحـــر

والزحام... يقف إبراهيم في هذا الزحام، لعل الحظ يبتسم إليه فيجد مقعدًا خاليًا فيسرع إليه، وما أن يتمكن من احتلاله حتى يستلقي عليه بظهره ورأسه... ربما يغط في النوم إن كان المشوار مازال طويلًا، أو يكتفي بأن يسند رأسه على حافة النافذة،ناظرًا بلا مبالاة إلى المارة وهم يجرون كالحشرات في الشوارع التي شوهتها النقرات، والحفر والأرصفة المتعرجة المغطاة بالقمامة.

يحاول إبراهيم دائمًا ألا يتأخر بعد مواعيد العمل الرسمية؛ حتى يتسنى له تناول الغذاء مع أولاده الثلاثة: هاشم وخالد ووائل، فهو يشعر أن من مسؤوليته كأب أن يقضي وقتًا كافيًا مع أولاده، يتابع معهم أمور المدرسة ويسألهم عن أصدقائهم. لكنه يحب أن يتناول الشاي بعد ذلك مع زوجته شمس وحدهما... فترة قصيرة لا تتعدى العشرين أو الثلاثين دقيقة، لكنها تعيد إليه الرغبة في الحياة؛ ربما لأنها الفترة الوحيدة التي يشعر فيها بمعنى لكل ما يفعل. عمله الروتيني من جمع وطرح على الآلة الحاسبة يشعر أنه فخور به أمام شمس؛ لأنه مصدر الدخل الذي يجنبها ويجنب أولادهما به مذلة الحاجة... مشواره القاسي في الأوتوبيس يصبح مصدراً لبعض النوادر التي يحكيها لزوجته... حتى السيجارة محلية الصنع يكون لها طعم... ربما طعم مر لكن على الأقل لها طعم... كوب الشاي الذي يبتلعه في العمل لكي يستعيد تركيزه، تصبح لكل رشفة منه مذاق

خاص... يتمنى ألا ينتهي حتى لا تنتهي جلسته مع شمس. يتحدثان في أي شيء، ربما تحكي له عن مشادة حدثت بينها وبين أحد أبنائهما المراهقين في الصباح، أو عن موقف طريف حدث لها مع أحد تلاميذها... يستمع إليها كطفل يستمع إلى قصة من ألف ليلة وليلة... يحكي لها عن عمله وعن زملائه في العمل، كما يتحدث بلا حرج عن الإكراميات التي تقاضاها من أجل تقديم طلب مراجعة على باقي الطلبات، ثم ينظر إلى عينيها العسليتين ليحاول أن يرى ما عجز عن رؤيته في طوايا نفسه، أحيانًا يرى فيهما عتابًا رقيقًا، وأحيانًا أخرى يرى تفهمًا وتسامحًا.. بعد ذلك تذهب شمس لتصحيح واجبات التلاميذ، أو للاستذكار مع الابن الأصغر وائل، الذي دائمًا ما يتعثر في الرياضيات. ويذهب إبراهيم في بعض الأحيان ليعمل لبضع ساعات إضافية في مكتبة أو كموظف حسابات في محل تجاري، وفي الأحيان الأخرى يساعد شمس في الأعباء المنزلية وقضاء المشاوير الأسبوعية. بعد ذلك يعود الزوجان منهكين إلى الفراش، خاصة شمس التي لا تقوى في أغلب الوقت حتى على الكلام.

* * *

كان والد إبراهيم موظفًا متوسطًا في هيئة البريد. تزوج زواجًا تقليديًا من ابنة عمه، وأنجب منها ابنتين وثلاثة أبناء، كان آخرهم إبراهيم... كان لطبيعة الأب المتدينة أثر كبير في

اختيار اسم إبراهيم... حيث سمَّاه على اسم أبي الأنبياء. وكان يذكِّره بذلك كلما شكا إليه تجبر شقيقيه الكبيرين عليه: "لست صغيرًا يا إبراهيم، اسمك هو اسم أبي الأنبياء".

أنهى إبراهيم تعليمه بمدرسة حكومية، لم تسمح له إمكانيات والده المتواضعة بالكثير من الاختيارات، فالتحق بكلية التجارة باعتبارها من أقل الكليات تكلفة. لم يكن إبراهيم طالبًا ناشطًا في المدرسة، ولم يكن كذلك في الجامعة، لكنه انضم وهو في العام الأول إلى حزب الكتلة الشعبية ذي الميول الاشتراكية؛ ربما بسبب جاذبيته للشباب وسحر الخطب الثورية التي كان يلقيها قادة الحزب في ذلك الوقت.

كان دخول إبراهيم في الحزب حدثًا سعيدًا له، حيث كانت هناك تجلس بجواره في المدرج فتاة خجولة، ذات شعر أسود طويل، وعينين واسعتين، كان دائمًا ما يسترق إليها النظر. كانت تأتي في تمام ميعاد المحاضرة، تحتضن كشكولها بقوة كأنه حبها الوحيد، وتلقي التحية بصوت خافت وابتسامة صغيرة. ثم لم يكن إبراهيم يسمع لها صوتًا حتى تنتهي المحاضرة وتسرع هي بالتوجه إلى الباب. لم يكن ضيق الوقت المتاح له، ولا مهارته المحدودة في فن المراوغة يسمحان لإبراهيم بأي حديث معها. راودته الرغبة في التعرف عليها بدايةً من قبيل الفضول، ثم تحولت هذه الرغبة مع مرور الوقت إلى تحدٍ حقيقي.

حانت له اللحظة لأول مرة، حين رآها في الاجتماع السنوي لشباب الحزب. لمحها في آخر القاعة، تجلس بهدوئها المعتاد، تتابع الخطب المتتالية بذات الجدية التي تتابع بها محاضراتها، بل وتصفق بنفس الجدية. استجمع شجاعته فذهب إليها وعرفها بنفسه، وسألها عن طريقة دخولها للحزب، فأجابته وبادلته السؤال، حكى لها فاستمعت وضحكت، ثم سألها عن رأيها في قادة الحزب، وأساتذة الكلية، والزملاء، فتكلمت وتكلمت وتكلمت... بدت له مثل كتلة من الثلج تذوب لتكشف تحتها أرضًا خضراء.

قبل أن يعرف اسمها، كان قد لاحظ أن كل جزء فيها يذكّر بالشمس: عيناها الواسعتان ذات اللون العسلي الفاتح، وشعرها اللامع البراق، وبشرتها الخمرية المشربة بالاحمرار...

كانت مشاعر إبراهيم تجاه شمس قد تغيرت تمامًا منذ تلك اللحظة، وبدا له أن مشاعرها بدأت تتغير أيضًا. إلا أن الجرأة خانته حتى نهاية العام الأول، فظلًا صديقين يتحدثان عن مشاكل الدراسة، وعن الزملاء، والأهل، والحياة اليومية، وبعض الأمور الخاصة من آن لآخر، حتى استجمع إبراهيم شجاعته في نهاية العام وصرح لها بحبه، فابتسمت شمس واحمر وجهها الخمري، ومنذ تلك اللحظة لم يفترقا أبدًا.

يتذكر إبراهيم كيف أن لهجة التذمر والسخرية بدأت تعلو بين طلبة الجامعة في هذه الفترة من فساد الملك ورجال القصر... كانت النكات اللاذعة تنتشر بين الطلبة مثل الفيروسات، وكانت لا تخلو جلسة على مقهى أو كافيتريا من كافيتريات الجامعة من حديث على فضيحة جديدة لرجل من رجال الملك. كانت بعض المنشورات التي يقوم الطلبة الشيوعيون بتوزيعها تصف الملك رشيد الثاني والمقربين إليه بأنهم "عالة على الشعب" و "مصاصو دماء الفقراء". و يتذكر بصفة خاصة المظاهرات الصاخبة التي قادها حزب الكتلة الشعبية بعد فضيحة الأدوية الفاسدة التي وردها أحد رجال الأعمال المقربين للقصر، ووافقت عليها وزارة الصحة بعد إلحاح الملك، التي كان يشارك فيها هو وشمس كأغلب الشباب. ورغم أنه لم يكن يومًا من القيادات، إلا أنه كان يشعر في قرارة نفسه بأنه يقوم بعمل أسطوري، وكأنه قوى الخير في مواجهة الشر كما تحكي قصص الأطفال. بل كان يشعر أن بطولته لا تقل كثيرًا عمَّا قام به "غاندي" أو "مارتن لوثر كينج" أو "سوبرمان"... كان فخره بنفسه بمثابة حقنة مخدر تجعله ينسى الخوف الغريزي من ضباط الشرطة، ويتحمل ضرب الهراوات باسمًا.

تخرَّج إبراهيم وشمس، فعُيِّن إبراهيم بمصلحة الضرائب والتحقت شمس بمدرسة حكومية للعمل كمدرسة رياضيات. ولم تكن عائلتا إبراهيم و شمس المحافظتين لتسمحا بأن تستمر علاقتهما خارج أسوار الجامعة، فأسرع إبراهيم بالتقدم إلى شمس، وتم الزواج بعد فترة خطوبة قصيرة.

مر عليهما عام كامل، وكأنهما آدم وحواء في الجنة. كان إبراهيم ينتظر بفراغ الصبر أن تأتي الساعة الرابعة ظهرًا ليلقي بالقلم، والملفات، والآلة الحاسبة على المكتب، ويسرع إلى محطة الأوتوبيس. بعد أن يصل إلى المنزل كان يقضي دقائق على عتبة الباب؛ للتأكد من سلامة ياقة القميص وأسفل البنطلون. كانت ساعات اليوم المتبقية التي يقضيها مع شمس تبدو له قصيرة للغاية، تنتهي غالبًا بليلة حب عارمة. كان يقتصد في علب السجائر والمشروبات التي يحتسيها في المصلحة؛ لكي يدعو زوجته في نهاية الشهر إلى مشاهدة فيلم وتناول عشاء فاخر.

ثم حدث ذات يوم أن تلقى إبراهيم مكالمة من شمس في المصلحة، تطمئن عليه وتخبره بما سمعته من زميلاتها بالمدرسة المقاربة للقصر الجمهوري، من قيام انقلاب عسكري بقيادة اللواء حجازي، أحد القيادات التي اكتسبت صيتًا في الآونة الأخيرة. كان صوتها يتموج بخليط من الانفعالات المتناقضة: الخوف والأمل، النشوة والقلق...

صدرت جميع مانشيتات الجرائد في اليوم التالي تبث أخبار الانقلاب، بخط عريض، وعبارات مسرحية، وكلمات درامية رنانة، كما أشارت جميعها إلى الخطبة التي سيلقيها اللواء حجازي في الإذاعة، في الساعة السادسة من مساء ذات اليوم.

يذكر إبراهيم في ذلك اليوم كيف أنه انتهى من عمله قبل المواعيد الرسمية بنصف ساعة، وكيف كانت لهفته وهو ينتظر أوتوبيس العودة، ثم تناوله للغذاء مع شمس في بضعة دقائق، ليذهبا بعد ذلك إلى المقهى المجاور حتى يشاهدا الخطبة في التليفزيون. حين وصل إبراهيم وشمس إلى المقهى في الخامسة والنصف كان التليفزيون مفتوحًا، ولم يجدا مكانًا إلا بصعوبة. يذكر ابرهيم أيضًا كوب الينسون الساخن الذي شربه في المقهى، وكم الرجال، والنساء، والشيوخ، بل والأطفال الذين تكدسوا في المقهى حتى لم تعد تكفيهم الكراسي...

بعد حوالي نصف ساعة مملة من الإعلانات، توقف الصوت تمامًا، وظهرت جملة بالخط العريض على الشاشة: "خطبة السيد اللواء أحمد حجازي بمناسبة قيام الثورة". سكت أغلب الجالسين، وانطلقت "ششش....!!!!" عصبية من أفواه البعض لإسكات القلة المارقة التي لم تسكت.

ظهر اللواء حجازي واقفًا ببدلته الميري، وعلم البلاد معلق في الخلفية... كان إبراهيم قد سمع بضعة مرات من قبل عن

ذلك الرجل في سياق حركات الجيش، والتوترات الأخـــيرة في علاقته بالملك، إلا أنه لم يكن قد رآه أبدًا. بدا له شاهق الطول والعرض. ظل مطرقًا لفترة فلم يرَ منه إلا شاربه الصغير وفكيه الواسعين المطبقين مثل الكماشة... رفع رأسه فـــأظهر عيـــنين شاسعتين مثل باقي جسده، تخرج منهما نظرة شــــرهة كأنـــه سيأكل بهما الكرة الأرضية وما عليها... حرك كماشته ببطء، مصدرًا صوتًا عال أجش:

"يا أبناء شعبي العزيز، يا أبناء شعبي الذي أعـــشقه وأجلـــه وأفديه بأغلي ما أملك، يعلم الله حجم الظلم والقهر والاستبداد الذي مرت به بلادنا في الأعوام الأخيرة، كانت قلة قليلة مـــن الأمراء والتنابلة ومن اتبعهم، تحكم غالبية ساحقة من العـــاملين الكادحين الذين لا يكادون يجـــدون لقمـــة الخبـــز في نهايـــة يومهم..."

يبدو أن شيئًا ما قد شوّش على الإرسال في هذه اللحظـــة، حيث بدأت الخطوط البيضاء والسوداء في التليفزيون تـــتداخل لتشكل ضبابًا رماديًا.

"ولما كانت قواتنا المسلحة جزءًا لا يتجزأ من هذا الشعب تنبض بنبضه، وتتألم لما يألم له، فقد قررنا – أنا وعـــدد مـــن إخواني الشرفاء في القوات المسلحة – أن نضع حدًا لما تقاســـيه

البلاد من ظلم واستبداد، لنبدأ صفحة جديدة من الحرية والديمقراطية. لذلك فقد قررنا أن نعلن عن إنهاء عهد الملكية، وعن بدء عهد سياسي جديد".

ازدادت الغيمة الرمادية. صفق الحاضرون تصفيقًا حارًّا:

"لقد مر شعبنا العظيم في السنوات الأخيرة بظروف قاسية؛ بسبب فساد الطبقة الحاكمة، وقهرها للطبقات الفقيرة من عمال وفلاحين. وللأسف فقد ساعدها على ذلك تفرق أبناء شعبنا في الأحزاب والتيارات السياسية المختلفة. ولذلك فقد عزمنا، درءًا للفتن، ومنعًا للفرقة على حل جميع الأحزاب السياسية؛ ليجتمع جميع أبناء شعبنا تحت راية الحزب القومي".

كانت الصدمة واضحة على وجه شمس الذي شحب من فرط الذهول، ولعلها كانت أوضح على وجه إبراهيم... إلا أن باقي الحاضرين ازدادوا تصفيقًا، وهم يتأملون في الغيمة الرمادية التي غطت الشاشة.

* * *

لم تلبث الأيام أن تؤكد صدمة إبراهيم وشمس، فلم يمر يومان حتى صدرت الجرائد بمانشيت عريض يعلن عن إغلاق جميع نقابات العمال والطلاب. وفي اليوم التالي، أعلنت ذات .

الصحف عن اعتقال جميع رؤساء الأحزاب، وبعض الكتـــاب، والصحفيين المشهورين، وغيرهم من المسجلين في قائمة "رموز الفساد"، ثم ما لبثت أن اختفت هذه الجرائـــد نفـــسها مـــن الأكشاك.

أكثر ما أدهش إبراهيم في تلك الفترة هو ســـرعة تـــأقلم الناس، الأقارب، وأصدقاء الجامعة، المدرسة، ناس قد اعتاد على سخريتهم وتعليقاتهم اللاذعة على كل ما يدور حولهم، صاروا يتحدثون عن رئيسهم الجديد وكأنه قد تم تخديرهم مغناطيسيًّا. كانت عبارات التسبيح والتهليل التي دائمًا ما تقتـــرن بـــسيرة الرئيس تبدو لإبراهيم أشبه بأخطاء مسرحية خارجة عن النص، في تناقض صارخ مع سياق الأعين الذليلة والوجوه التي تبلدت من فرط القهر.

بعد حوالي خمس سنوات على هذا الحال (توفي خلالها والد إبراهيم، وأنجب خلالها أولاده الثلاث) حدث خلاف بين اللواء حجازي وقيادات الجيش الذي كان يمثل خط الحمايـــة الأول للنظام... قام على إثره انقلاب جديد بقيـــادة مجموعـــة مـــن اللواءات يطلقون على أنفسهم "حـــراس الـــشعب". وبعـــد الإطاحة باللواء حجازي كانت المفاجأة إعلان اللواء جـــلال

رضوان، أحد اللواءات المغمورين في سلاح المشاة، رئيسًا للجمهورية.

مضت بعد ذلك ثلاثة أو أربعة أعوام كانت قيادات ''حراس الشعب'' تظهر خلالها في الجرائد والراديو أكثر مما كان يظهر اللواء رضوان نفسه... وكانت ثمة "حرب باردة" بين القيادات، يتابعها الناس بشغف، ويراهن كل منهم على فوز أحد اللواءات بها، وكأنها دوري كرة قدم، رغم عدم معرفتهم الكثير عما يدور بين الضباط في الكواليس. لكن مع مرور الوقت بدأ رضوان يظهر أكثر في الجرائد، وأصبح صوته مألوفًا في الراديو... وعلى طريقة ساحر ماهر أو حاوي يلعب بالعرائس ولا يظهر إلا في نهاية العرض، أعلن رضوان ذات يوم عن اعتقال جميع "العناصر التي تسعى إلى زعزعة الأمن والاستقرار القومي"، وأعلن بعد فترة وجيزة عن دستور جديد.

وبمناسبة إعلان الدستور الجديد، ظهر رضوان في التليفزيون بقامته القصيرة، وجسمه البدين؛ ليلقي خطبة طويلة فصيحة، لا يذكر إبراهيم منها الكثير، وإن كان ما علق بذهنه هو سيل لا ينتهي من الوعود البراقة. وفي ظل الدستور الجديد تم الإعلان عن أربعة أحزاب جديدة، بل وتم الإفراج عن أعضاء جماعة "نور الهدى" الإسلامية المتطرفة. مرت السنون، والحال لا

يتبدل، وفاز رضوان في ثلاثة انتخابات رئاسية متعاقبة بلا أدنى منافسة.

في كل يوم جمعة بعد الصلاة تجتمع عائلة إبراهيم الواسعة (الأشقاء الأربعة وأبنائهم، وأحيانًا الأخوال، بالإضافة إلى العم رشاد، عم إبراهيم الأعزب) في مترل والدته. تنتظر الوالدة كل أسبوع بفارغ الصبر هذا اليوم؛ لكي تفرغ مخزونها من القصص القديمة المتراكمة عبر سنين الحياة. وكثيرًا ما تخونها ذاكرتها العجوز فتعيد سرد ذات القصة مرات ومرات، إلا أن أبناءها وأحفادها قد ألفوا منها هذه الهفوات، فيستمعون في كل مرة بصمت تام. وكثيرًا ما تردد الأم العجوز قصصًا عن زوجها الراحل،وكيف كان زوجًا مثاليًا ورجلًا عظيمًا. ومن أكثر الروايات التي ترددها قصته مع شركة الأغذية التي بدأ حياته العملية بها... حيث تم تعيينه في شركة أغذية كانت تحقق أرباحًا طائلة، وكان الكثير من الشباب يحلمون بالعمل فيها... إلى أن اكتشف من خلال عمله بالصدفة أن الشركة تستخدم نوعًا من الألوان الصناعية المضرة والممنوعة، فخاف أن يكون رزقه من حرام، وصلى صلاة استخارة -كما تؤكد الوالدة في كل مرة تحكي فيها القصة- وقدم استقالته والتحق بهيئة البريد، رغم أن مرتبه بالهيئة لم يكن يتعدى نصف مرتبه بالشركة. في كل مرة يسمع فيها إبراهيم هذه القصة يتأرجح بكرسيه وينظر إلى أعلى متأملًا السقف المنخفض الذي تكسوه عشش العنكبوت: "كم أتمنى يا أمي، لو أنك تعيشين معنا في هذا

العصر... كنت سأقص عليك كل شيء كما أفعل مع شمس...
نعم يا أمي، لا أنكر أني أتلقى يوميًّا بعض الأوراق المالية من أصحاب الملفات المتأخرة... لست أدري إن كنت تعرفين، لكنك تعلمينه في قرارة نفسك على الأقل، وإن لم تبوحي به لعقلك الذي يسبح في أنهار الجنة... فبالله عليك، كيف يخيل لك أني أسدد مصاريف مدرسة الأولاد الثلاثة بمرتبي الذي لا يكفي لشراء زوج من الأحذية؟ صحيح أن زميلي يوسف يرفض تلقي أي أموال من خلال عمله، مما يجعله يُذكر في بعض الأحيان كمثلٍ أعلى للموظفين، ويصير في أحيان أخرى مثارًا للسخرية... لكنّه في كل الأحوال تسبب في موت ابنته التي لم يستطع علاجها من السرطان... أتريدينني أن أكون قاتلًا يا أمي؟ إن أبي غاية ما في الأمر أنه كان أكثر حظًّا مني...
نعم لقد كان محظوظًا... فقد ولد في عهد وضحت فيه الألوان الأبيض والأسود... عهد كل ما عليك فيه أن تختاري...
كانت الحياة أشبه فيه بأسئلة "اختر ما بين القوسين" التي عهدناها في رياض الأطفال... نعم لقد اختار أبي وظيفة مرتبها قليل نسبيًّا، لكني لا أذكر يومًا ذهبت فيه إلى المدرسة جائعًا، أو رأيت أبي يرتدي ملابسًا بالية... لقد أشفق عليه القدر من أن يلقيه ما بين الوحوش الجائعة في الغابة التي نحيا فيها الآن، إما أن تتعلمي قوانينها وتعيشي بها، أو لا تعيشين أساسًا، فمن فضلك يا أمي، كفي عن تكرار تلك القصة، فلست بحاجة لمزيد من الشفقة على نفسي".

يستمر الحديث أثناء الغذاء ضاحكًا في أغلب الوقت، فيحكي أحد أشقاء إبراهيم عن نادرة حدثت في عمله، أو يقوم خالد بتقليد مدرس الحساب الذي لا يفهم منه شيئًا، أو يداعب أحد الأحفاد الجدة العجوز وهي تجاهد حتى تبتلع حبات الدواء. على الرغم من ذلك فكثيرًا ما يتخلل الحديث قصص مأساوية... فتحكي مرة شمس عن تلميذة في مدرستها أصيبت بورم في العين وذهبت إلى المستشفى لإجراء العملية، فأصيبت بالعمى؛ نتيجة لإهمال الطبيب... وفي مرة أخرى تروي مروة شقيقة إبراهيم عن ابن صديقتها الذي لُفقت له قضية حيازة مخدرات بعد مشاجرة مع ضابط شرطة شاب... في كل مرة يكون رد الفعل مشابهًا: يتنهد الحاضرون، ويتمتمون بعبارات الشفقة، أو يلعنون البلد التي يعيشون فيها، وتتمتم الجدة بـ:"لا حول ولا قوة إلا بالله"، بينما يحمد إبراهيم الله في سره أن هذا الموقف لم يحدث له، أو لأولاده، أو لزوجته... ثم يعودون إلى حديثهم الضاحك. هذه المرة يكون الدور على ابن مروة في قطع الحديث الضاحك: "زميل له في الجامعة، ذهب لانتخاب مرشح مستقل في الانتخابات البرلمانية، فمنعته الشرطة من الدخول... فلما أصر على موقفه هوت الهراوة على رأسه، فأصيب بشرخ في الجمجمة"... "إنها عصابة من الكلاب المسعورة " هكذا يتمتم الشقيق الأكبر

مصطفى، وهو يهز رأسه بأسى كالمغلوب على أمره، يلي ذلك بعض عبارات الاستياء من زوجته هدى، ومن شمس، ومن الوالدة... ثم يتبسم عبد الله شقيق إبراهيم الآخر ويقول بلهجة باردة: "إذا أردنا إنصافًا فالشرطة ليست مخطئة... نحن لسنا في بريطانيا العظمى حيث يطيح المجلس بالوزارات ويقعدها... مجلسنا ليس سوى سيركًا للبهلوانات، فدعهم ينتخبون من يشاؤون".

تتدخل هدى بلهجة أكثر جدية: "من البديهي أن شيئًا لن يتغير من خلال هذا البرلمان حتى يتغير رضوان، وبما أنه من المؤكد أيضًا أن ذلك الملعون لن يترك الحكم إلا حين يموت، فإن شيئًا لن يتغير حتى يموت رضوان".

يتابع العم رشاد الحوار بنظره صامتًا.

تتدخل شمس في الحديث بنبرة صوتها الحالمة التي تميزها عن باقي الأصوات:

- كم أتمنى أن أرى بلدًا غير هذا البلد...

- ألم تفيقي بعد من هذه الأحلام؟

تخبط شمس على ذراع زوجها بابتسامة مداعبة.

يقول إبراهيم بطريقته الهادئة المتعقلة التي تجعله يبدو دائمًا كالأخ الأكبر: "في بلدنا قاعدة واحدة واضحة: ابعد عن السياسة تسلم... عش في حالك ولا تدعي البطولة، لن يؤذيك أحد..."

تقاطعه هدى بجدية مصطنعة: "لا تقل ذلك، لا تنس أننا في دولة ديمقراطية" لا يضحك أحد. ثم تقوم مروة من كرسيها متجهة إلى المطبخ وهي تقول: "سآتي لكم بالشاي والبسكويت".

* * *

كمال زميل إبراهيم في العمل، واحد من أولئك الناس الذين ليس لهم نصيب كبير من الإنجازات في الحياة، لكنهم يجيدون جذب اهتمام الحاضرين في أي مكان وتسليتهم بفضل ما يملكون -أو يدعون أنهم يملكون- من معلومات في شتى المجالات. ويتألق كمال في كل المجالات بدءًا من أخبار نجمات السينما إلى أدق دقائق الاقتصاد القومي، ويرجع الفضل في تألقه إلى حرصه الدائم على قراءة أغلب الصحف اليومية؛ ليكون أول من يتحدث عن الأخبار المهمة حين يصل إلى المصلحة في الصباح، ثم يضيف رؤيته الشخصية -التي كثيرًا ما

يكون قد قرأها في إحدى صحف المعارضة- ليزيد كلامه سحرًا و جاذبية.

يدخل إبراهيم من باب المصلحة فيجد كمال منهمكًا في قراءة جريدة "الجماهير" القومية. يلقي عليه التحية، فيرد دون أن يخرج رأسه من الجريدة. يمضي إبراهيم إلى مكتبه مبتسمًا، فقد تعوَّد على ذلك حينما يكون كمال مهمومًا بأمر خطير - كاعتزال لاعب كرة قدم، أو وفاة زعيم في دولة أفريقية- ثم يسأل بصوت عال؛ لكي يخرجه من انهماكه:

- ماذا يشغلك اليوم أيها الفيلسوف العظيم؟

يخرج كمال رأسه من الجريدة ببطء، ويبدو كما لو أنه يستجمع تركيزه للرد على إبراهيم، ثم يقول بحماس:

- ألم تقرأ الجرائد اليوم؟ مشروع ضخم جدًّا، سيقومون باستصلاح مساحة هائلة من الأرض المتاخمة للشاطئ الجنوبي للبحيرة، فقد اكتشف أحد المستثمرين الأمريكيين أن ملوحة التربة هناك تسمح بزراعة الأرز والشعير، إنها مساحة هائلة، حوالي ٣٠ ألف فدان من الأرض الزراعية... أتتخيل ذلك؟

يهز إبراهيم كتفيه، ويشعل سيجارة كعادته كل يوم قبل أن يبدأ العمل.

يصل بعد ذلك زميلهما "رضا"، يحمل معه كعادته جهاز راديو "ترانزيستر" حتى لا تفوته مباريات كرة القدم المحلية وأخبارها التي لا تنقطع في خلال يوم العمل الشاق.

يبدأ كمال مرة أخرى في سرد الأحداث، إلا أن هذا الأخير يقاطعه قائلًا:

- نعم، لقد قرأت الخبر، يبدو أنه مشروع كبير.

يتوقف إبراهيم عن التدخين، ويحدق في زميليه بنظرة تعجب يخالجها شيء من الاستخفاف.

- لا أدري لماذا تتحمسون إلى هذا الحد؟ أمازالت لديكم آمال في مثل تلك المشاريع؟ كلنا نذكر مشروع المحجر الجيري الذي اكتشفوه شرق البحيرة... ألم يتبين بعد ذلك أنه يسبب تلوث المياه والزراعة على الشاطئ؟ من المؤكد أننا سنكتشف مصيبة أخرى في ذلك المشروع...".

يفاجئ الجميع بصوت زميلهم يوسف الجهوري، الذي كان يبدو نائمًا على مكتبه حتى هذه اللحظة:

- في أوروبا وأمريكا تنفذ مشروعات كهذه بصورة دورية، أما عندنا فكلما قام أحد المسؤولين بتطوير مشروع نقل، أو صرف صحي، أو بدأ مشروعًا زراعيًّا كهذا، فإن الدنيا تقوم، ولا تقعد كما لو كنا قد اخترعنا الذرة".

يضيف إبراهيم بلهجته الهادئة:

"ولو فرضنا أن المشروع قد نجح وأصبح مبهرًا، فإن الأرض ستوزع بالعدل والقسطاس ما بين وزير الزراعة وأحبابه، ولن ينالنا منها شيء".

يتنهد رضا ويتمتم: "لعل وعسى...".

في صباح اليوم التالي، بينما إبراهيم يتناول الإفطار مع زوجته بعد ذهاب الأولاد إلى المدرسة كعادته، تقرأ شمس عليه خبرًا من جريدة "صوت الأحرار" المعارضة:

- يقولون إنهم استشاروا أساتذة في الزراعة والبيئة، وأنهم أجمعوا على أن هذه الأرض مرتفعة عن سطح البحيرة، وتكلفة توصيل المياه إليها باهظة جدًّا، وأن هناك أماكن أخرى كثيرة لإقامة نفس المشروع بنفس المساحة تقريبًا.

تنظر إليه، فيبتسم ابتسامة غلبها النعاس، فتستطرد القراءة:

- وليس ذلك فحسب، بل أن أهالي القرى التي تقع في المنطقة يتذمرون من المشروع؛ لأن نشاطهم الأساسي هو الحصول على الملح من البحيرة، وسوف يتعرض للتوقف؛ بسبب صعوبة المرور في المزارع التي يريدون إقامتها على الشاطئ...

تنظر إليه مرة أخرى، فتجده يهز فتلة كيس الشاي، فتستسلم وتضع الجريدة جانبًا، وهي تتنهد.

كما توقع إبراهيم، يصل كمال إلى المصلحة في ذلك اليوم ممسكًا بجريدة "صوت الأحرار" يلقي تحية الصباح على الجميع ويتجه إلى مكتبه مسرعًا كمن وراءه أمر مهم لمناقشته، بينما إبراهيم يدخن سيجارته الاستفتاحية ممنيًا نفسه بالغرائب والطرائف التي سيسمعها من كمال. وبالفعل ما هي إلا ثوان

- يلتقط فيها كمال أنفاسه- حتى يبدأ هذا الأخير حديثه بجملته المعتادة:

- ألم تقرأوا الجرائد اليوم؟ يبدو أن المشروع الجديد سيورط الحكومة في مشاكل ليس لها آخر، فسكان المنطقة يعيشون على خيرات البحيرة، كما أن هناك مناطق أخرى يمكن استصلاحها، وبتكلفة أقل.

يسأل يوسف:

- ولكن لماذا إذن تم اختيار تلك المنطقة؟

و يبدو أن كمال كان ينتظر هذا السؤال؛ لكي ينطلق في تحليلاته السياسية، فيبتسم ويسكت قليلًا، ثم ينحني للأمام ويخفض صوته كما لو كان يتحدث عن أسرار عسكرية:

- هذا المستثمر الأمريكي الذي يقول إنه "اكتشف" هذه الأرض هو في الواقع قد اشتراها من فترة بسعر باهظ جدًّا من أجل استصلاحها، واشترك معه بعد ذلك عامر ابن الرئيس، ولكنهما فوجئا بنفس مشكلة توصيل المياه. فلما شعر الاثنان بعجزهما عن استغلال الأرض اتفق عامر مع والده على أن يبيع المستثمر الأرض للحكومة بنفس الثمن الباهظ الذي اشتروها به، بينما يظل عامر في الخفاء، وبهذه الطريقة تخلص عامر وصديقه الأمريكي من هذا المشروع الفاشل الذي ورطوا أنفسهم فيه، وبطبيعة الأمر، قالوا إنه مشروع استصلاح زراعي من أجل التعتيم على الصفقة".

ينظر إليه الثلاثة بانبهار، ويتمتم يوسف ورضا بعبارات التعجب...

يضحك إبراهيم قائلًا:

- وتخيلوا أن زوجتي تتمنى أن تسافر إلى الخارج! والله لو ذهبت إلى آخر الدنيا لن ترى بلدًا أكثر عجبًا وكوميدية من هذا البلد!

ثم يقول يوسف وهو يحرك يديه البدينتين:

- على كل حال، الفساد ليس بجديد في بلدنا، فلتدفع الحكومة ما تشاء أن تدفع، المهم أن أي قطعة أرض سيتم استصلاحها سيكون لكل مواطن نصيب منها، وبسعر مدعم،

فمساحة كهذه تكفي للجميع، ألسنا دولة اشتراكية بنص الدستور؟

يتدخل إبراهيم بطريقته الجادة:

– كيف نكون موظفين في دولة اشتراكية، ولا نكاد نحصل على تأمين صحي؟

– يدخل كمال مرة أخرى في الحديث، وهو يعدل نظارته السميكة:

– نظام الدولة، وشرعيتها، ومبادئها كلها مستقاة من ثورة اللواء حجازي، فرضوان يؤكد في كل مناسبة بأنه على الرغم من الانقلاب الذي قام به...

يقاطعه رضا، وهو يحاول ضبط الراديو لسماع أخبار الصباح:

– إذاً فلماذا يطربنا دائمًا بإصلاحاته الهرقلية التي أنقذ بها البلاد؟

ينظر يوسف إلى ساعته ويقول:

– هيا كفانا سفسطة، الساعة التاسعة ونصف، ولم نبدأ العمل بعد.

٢

يطرق الدكتور عارف على الباب برفق، فعلى الرغم من أنه المستشار السياسي للرئيس، ومن أقرب المقربين إليه، إلا أنه يعلم أن سيادته لا يحب أن يتعدى أحد معه حدود البروتوكول. يُسمح له بالدخول فيدخل بخطوات هادئة وبابتسامته التي لا تفارقه. يستقبله رجل في منتصف الستينات من العمر، أصلع إلى النصف وإن لم يكن الشيب قد تمكن تمامًا من شعره بعد، حمري البشرة، ملامحه غليظة تدل على أصل قروي بسيط وبخاصة أنفه الضخم، نظرته يختلط فيها الكبرياء بشيء من السذاجة الطفولية. يجلس أمام مكتب عريض من الخشب الزان عليه زهرية كبيرة، وعلم، وقلم حبر فاخر، بالإضافة إلى بعض الأوراق... يبتسم للدكتور عارف ابتسامة صغيرة توحي بطيبة أبوية، يحييه الدكتور عارف فيرد عليه الرئيس التحية، ويدعوه إلى الجلوس بحركة من يده ثم يقول:

- أعتقد أن السكرتارية قد أخبروك بسبب استدعائي لك، أريد استشارتك في صياغة الخطبة الافتتاحية للدورة البرلمانية.

يرد عليه الدكتور عارف بعبارته المعتادة في بداية حواراته مع الرئيس:

- أنا رهن إشارتك يا سيادة الرئيس.

يقوم الرئيس من مجلسه ببطء ويتجول قليلًا بين الحوائط الصفراء الشاهقة، واضعًا يديه في جيبه، ناظرًا إلى الأرض كأنه يفكر في أمر خطير، ثم يقول بهدوء دون أن يحول نظره إلى عارف:

- فكرت في أن أبدأ بالحديث عن قانوني ضرائب المبيعات وتطوير التعليم باعتبارهما أكبر إنجازين للبرلمان في الدورة الماضية...

- فكرة رائعة يا سيادة الرئيس.

يستطرد رضوان بنفس اللهجة، وهو مستمر في تجواله وكأنه لم يسمع شيئًا -وإن كان الدكتور عارف يدرك تمامًا أثر مثل تلك التعليقات عليه-:

- وفكرت أيضًا في الحديث عن تاريخ المجلس، لكني لا أعرف بأيهما أبدأ.

يسكت عارف لحظة مفكرًا، ثم يقول:

- يبدو لي أن كليهما في لب الموضوع، أعتقد أنه من الأفضل أن تتحدث عنهما في قلب الخطبة، وتتحدث في المقدمة عن الحياة الديمقراطية في البلاد، أعني الإصلاحات الديمقراطية التي تمت في عهد سيادتكم.

ينظر الرئيس إليه نظرة راضية، كأنما وصل إلى النقطة التي كان يريد الوصول إليها:

- فكرت في ذلك أيضًا، لكني خشيت أن يكون الوقت غير مناسب.

ينظر إليه عارف في دهشة:

- لماذا؟

لا يرد الرئيس، بل يتجه مسرعًا إلى مكتبه، ويخرج من الدرج جريدة مطوية، يقدمها إلى عارف قائلًا بحزم:

- انظر ماذا يقال عن الانتخابات في الصفحة الأولى.

يلتقط عارف الجريدة، إنها جريدة "صوت الأحرار" بحجمها الكبير وطبعتها الباهتة، يقرأ الخبر المكتوب بالخط العريض في الصفحة الأولى، ثم ينظر إلى الرئيس مصطنعًا الدهشة:

- إنهم يدعون أن الانتخابات...

يحني الرئيس رأسه ويقول بلهجة اعتراف:

- مزورة... يقولها ثم يتجه إلى الكرسي المجاور لكرسي عارف، فيتخذ منه مجلسًا، ويظل صامتًا برهة ثم ينظر إليه نظرة عميقة، ويقول:

– أتدري ما هو أصعب شيء حين تحكم دولة مثل هذه؟

– ما هو يا سيدي الرئيس؟

– أنك تحكم شعبًا جاهلًا... أحمقًا... تحاول حمايته فلا يفهم... لا يقدر لك جميلًا أبدًا. كل جريمتي هي أنني قد أصدرت تعليمات إلى رجال الأمن بأن يحدوا من عدد الناخبين في مناطق النفوذ لجماعة "نور الهدى"... فشعبنا طيب وعاطفي، ويسهل خداعه... ينقاد خلف أي فاسق يرفع شعار الدين، مهما بلغ فسوقه... يسكت قليلًا وهو يتنفس بعمق محاولًا السيطرة على غيظه، ثم يستطرد:

– الناس لا يدركون ما قد يحدث لو فاز مثل هؤلاء بالانتخابات... سوف يتسلقون الدولة مثل النباتات الطفيلية حتى يهيمنوا تمامًا على كل صغيرة وكبيرة... عندئذ قل للانتخابات وللديمقراطية السلام... انظر إلى نتيجة الانتخابات الحالية... الكل ممثَل: الحزب القومي ممثَل، وحزب العدالة والحرية ممثَل، والأحزاب الصغيرة الأخرى ممثَلة... حتى الجماعة ممثلة لكن بقدر... فما هي المشكلة؟ ويبدو أن الرئيس قد بدأ يضيق بصمت مستشاره المطبق، فيسأله بشيء من الحدة: ألا توافقني؟

ولكن يبدو أيضًا أن عارف قد استعد للسؤال، فيقول بحماس:

- بالطبع يا سيدي الرئيس، فأنت من أرسيت قواعد الديمقراطية في هذا البلد، ومن حقك، بل من واجبك أن تدافع عنها بالوسائل التي تراها.

يقول الرئيس وقد هدأ قليلًا:

- المشكلة أن الناس ستصدق أولئك الحمقى -يمسك الجريدة بيده ويهزها ثم يلقيها مرة أخرى على المكتب- على الرغم من أن حزب العدالة والحرية هذا سيكون أول من يخسر مقاعده لو أن رجال "نور الهدى" قد أُطلق لهم الحبل على الغارب... يضحك ضحكة عصبية ثم يستطرد: والأغرب أنني حين قررت الإفراج عن أعضاء هذه الجماعة اتهمني الكثيرون بأنني أشجع التطرف... ماذا أفعل إذن حتى يرضى عني هذا الشعب العجيب؟

يقول عارف بابتسامته الدائمة:

- دعك يا سيدي الرئيس، من ذلك الهراء فلا أحد يقرأ مثل تلك الصحف، ٥٠% من شعبنا لا يقرأ إلا أخبار النجوم والرياضة، والـ ٥٠ % الآخرون لا يقرأون الجرائد، أو لا يعرفون القراءة من الأساس.

ينظر له الرئيس بشيء من الريبة، فيؤكد له عارف:

- لا تقلق يا سيدي الرئيس، ولا تتردد في الإفصاح عن إنجازاتك في خطبة البرلمان.

* * *

وُلد جلال رضوان في قرية صغيرة في جنوب البلاد، حيث كان والده يمتلك دكانًا للبقالة. كانت عائلته تحيا حياة بسيطة بطبيعة الحال، وإن لم تصل إلى حد الفقر المدقع. كان رضوان تلميذًا هادئًا، بالغ الأدب مع مدرسيه، مجدًا إلى درجة كبيرة، وإن لم يكن متفوقًا... كان أصدقاؤه معدودين، ولم يكن يشارك في أي نشاطات مدرسية، حتى أنه بعد بضعة أعوام من التخرج، لم يعد أغلب زملائه في الدراسة يتذكرون اسمه (حتى تولى الرئاسة، فذكر الكثير من أهل قريته، ومن بني جيله أنهم كانوا زملاءه، بل وأصدقاءه في المدرسة) . حصل رضوان على مجموع درجات لا بأس به في المرحلة الثانوية، مكنته من الالتحاق بالكلية الحربية التي كان والده يحلم له بها ليكون مدعاة لفخر الأسرة،ودرعًا يحميها. ومنذ الشهور الأولى في الكلية أثبت رضوان أنه قد خُلق لمهنة ضابط، حيث أشاد الضباط المدربون بالتزامه، وتنفيذه للتعليمات والأوامر دون مناقشة... ثم دخل بعد أن أنهى دراسته في سلاح المشاة، وأكمل مسيرته التي بدأها في الكلية كضابط ملتزم مطيع

لرؤسائه، ينفذ الأوامر بدقة واحتراف. إلا أنه لم يكن محبوبًا من الجنود؛ بسبب طريقته العسكرية الصارمة التي لا تتغير ولا تتبدل... فكان يطبق العقوبات التي تنص عليها اللوائح العسكرية بشكل حرفي، ودون النظر إلى الظروف التي ارتكبت فيها... كما كان يرفض أن يصرح بأجازة إضافية للجندي الذي توفيت والدته، أو الذي أصيب بأنفلونزا حادة... مما أكسبه سمعة بأنه رجل قاس ضيق الأفق، يفتقد المرونة. والواقع إن تصرفات رضوان لم يكن منبعها قسوة، أو شرور في نفسه، بل إنه لم يكن يجيد التعامل بطريقة أخرى، فكان يتعامل بهذه الطريقة الحازمة مع أبنائه، بل وأحيانًا كثيرة مع زوجته ليلى... فقد طُبع بنشأته العسكرية — إلى جانب استعداده الفطري — في كل جوانب شخصيته... نبرة صوته الغليظة المصطنعة بعض الشيء... إيمانه العميق بالتدرج الوظيفي والطبقي... اهتمامه المبالغ فيه بالنظام والانضباط....

* * *

عندما قام الانقلاب العسكري بقيادة اللواء حجازي، كان رضوان في الثالثة والأربعين من عمره... لم يكن رضوان يبالي كثيرًا بالسياسة، فلم يكن الخبر ذا وقع كبير عليه في بداية الأمر. لم يبال حتى بمشاهدة خطبة اللواء حجازي. جلس يتناول العشاء وحيدًا، بينما جلست ليلى أمام التلفزيون.

إلا أن شيئًا ما قد تغير... على الرغم من صرامته وجديته في التعامل مع الجنود، فإن رضوان قد لاحظ شيئًا ما قد بدأ يظهر عليهم، وإن لم يستطع أن يحدد ما هو... ربما أصبحت وجوههم أكثر بلادة... أو ربما صارت ملامحهم أقل تحديدًا وصرامة ورجولة... وربما صارت تحية العلم التي يلقونها أكثر روتينية، وأقل حماسًا...

لم يكن رضوان شاعرًا أو فيلسوفًا، بل كان ضابطًا بالقوات المسلحة... وضابطًا ملتزمًا ومتزنًا... إذًا فهو لا يتخيل شيئًا... ثمة أمور قد تغيرت حقًا. خيل إليه أيضًا أن مذاق الطعام قد تغير، فأصبح نيئًا رديئًا. "ليلى لماذا شوربة العدس خفيفة أكثر من اللازم اليوم؟" "لماذا لم تضعي ملحًا في صلصة المكرونة؟" وتتعجب ليلى. فهي لم تترك الشوربة على النار أكثر من المرات السابقة، وأضافت الملح للصلصة. لم يجد رضوان سببًا منطقيًّا لذلك، فأزاح تلك الأفكار السخيفة من رأسه.

انهالت بعد فترة وجيزة العلاوات والمكافآت على رضوان وزملائه، وأقيمت لهم مستشفيات مجانية فاخرة، واستراحات على شاطئ البحيرة، فنسي رضوان تمامًا ذلك الشعور الغريب، الذي انتابه في أول أيام الانقلاب، وصار أكثر ميلًا للرئيس الجديد.

* * *

بعد حوالي أربع سنوات – كان رضوان قد وصل خلالها إلى رتبة لواء – بدأت تتسرب أنباء عن وجود حساسيات ما بين قيادات الجيش، وبين اللواء حجازي؛ بسبب إزاحة اللواءات من وزارتي الخارجية والمالية، وإسنادها إلى مدنيين... أرسل قيادات الجيش خطابات إلى الرئيس يطالبونه بمراجعة موقفه... تطورت لهجة الخطابات من الرجاء إلى المطالبة إلى الوعيد... لكن اللواء حجازي كان قد تملكه جنون العظمة تمامًا، حتى إنه لم يأبه ولو بالرد على أي من هذه الخطابات...

كان رضوان كثيرًا ما يجلس مع زملائه في نادي سلاح المشاة؛ لتناول الشاي، والتناقش حول بعض مستجدات العمل. لكنه لاحظ عليهم في تلك الفترة تغيرًا واضحًا... فكان يصل دائمًا في الميعاد المتفق عليه، فيجد اللواء سليم واللواء مهران والعقيد صبري، وهم يتهامسون بغضب، و ما أن يروه حتى يسكتوا ويرحبوا به بحرارة مبالغ فيها، ثم يحولوا الحديث إلى العمل ومشاكله اليومية... في إحدى المرات تجرأ وسألهم عما يتهامسون فيه، فضحك اللواء مهران بعصبية، وقال إنهم جميعًا يشكون من زوجاتهم... لم يكن الرد مقنعًا بالطبع، وبدأ الشك يتسرب إلى رضوان بأن زملاءه يخططون لأمر خطير، و إن لم يعرف ما هو... كان بطبعه يحاذر من كل ما قد يخالف أو يهدد النظام القائم، فبدأ يتجنب الجلوس مع هؤلاء الضباط... وأكثر ما أثار حنقه على اللواءين هو اشراكهما للعقيد صبري

في أسرارهما... فكيف يثقون في عقيد، ولا يثقون فيه شخصيًا وهو لواء مثلهما؟ أبلغ بهما الاستهتار به إلى هذا الحد؟ وصل به الحنق أن فكر في إبلاغ الشرطة العسكرية، لكنه فكر بعد ذلك في إنه سيقحم نفسه في متاعب لا ضرورة لها.

لم تدم شكوك رضوان طويلًا. ففي يوم أربعاء، بعد مرور بضعة شهور، أيقظته ابنته في الساعة الثامنة صباحًا؛ لتخبره إن رئيس أركان الحرب يريد التحدث إليه على الهاتف. هب رضوان مذعورًا، وإذا برئيس أركان الحرب يخبره بأن جزءًا كبيرًا من وحدات الجيش المركزية، تتحرك نحو القصر الجمهوري بغرض قلب النظام الحاكم، ويأمره بالتحرك بفرقته في أسرع وقت ليقطع الطريق عليها. أجرى رضوان بعض الاتصالات الضرورية، وارتدى ملابسه العسكرية سريعًا، وركب السيارة، لكن الزحام كان هائلًا، والناس يجرون في جميع الاتجاهات في هلع واضح، ولا يكاد يخلو شارع أو ميدان من حادث أو حوادث تصادم سيارات... وصل رضوان إلى المعسكر بعد ساعتين، ثم اجتمع بضباط الكتيبة في غرفة القيادة للاتفاق على خطة التحرك، بعد أن أمر الجنود بالاستعداد... وبعد حوالي ربع ساعة من المداولات، بدأ في ضبط الصفوف من أجل التحرك... وبينما هو منهمك في ذلك، مال عليه أحد الضباط يستأذنه في الذهاب إلى غرفة القيادة لاستطلاع الأخبار في الراديو؛ لعلها تأتي بما يفيدهم في التحرك... وافق رضوان، وبعد لحظات عاد إليه الضابط لاهثًا.

"سيدي... لا داعي للتحرك... اللواء حجازي تنازل عن الحكم."

انتابت رضوان مشاعر متناقضة. كانت خيبة أمله كبيرة؛ بسبب انتصار اللواءين سليم ومهران وشريكهما العقيد صبري، لكنه في الآن ذاته شعر بارتياح عميق؛ لأنه تجنب مواجهات دامية، وحرب شوارع لا يأمن أن يخرج منها سالمًا... اجتمع رضوان بضباطه مرة أخرى داخل غرفة القيادة، وبعد مداولة قصيرة، اتفقوا على التراجع عن التحرك، وصرف الجنود إلى هناجرهم.

انتهت الفوضى سريعًا، وأعلن اللواء حجازي رسميًّا استسلامه في خطبة درامية أذيعت على الراديو والتلفزيون. بعد الخطبة مباشرة انقطع الإرسال لمدة دقائق، ثم ظهر ضابط مجهول الهوية على الشاشة، بشارب عريض، ووجه حاد القسمات، قدم نفسه للجمهور على أنه " ممثل جماعة حراس الشعب " . ظل ساكتًا برهة؛ ليستجمع انتباه المشاهدين، ثم بدأ يسترسل في خطايا العهد السابق، وما كان فيه من ظلم وقمع. كان حديثه يشبه إلى درجة مدهشة حديث اللواء حجازي في خطبته الأولى. اختتم الضابط خطبته بأن أول هدف قصير الأجل للجماعة هو عرض مرشحهم للرئاسة للاستفتاء في الأيام المقبلة...

بعدها بحوالي أسبوع، كان رضوان عائدًا لتوه من العمل، عندما أخبرته ليلى بأن "شخصًا ما" قد اتصل به، وقال أنه من رئاسة الجمهورية، وطلب منه الحضور إلى القصر الجمهوري في الساعة السادسة من مساء اليوم التالي. اتجه فكر رضوان إلى أن "حراس الشعب" يريدون تصفية حساباتهم معه؛ لأنه قد أطاع رئيس أركان الحرب، وحاول أن يمنعهم من إتمام ثورتهم... ياللهول... ماذا سوف يقول لهم؟ سوف يقول إنه مجرد ضابط، لا يملك الخيار في تنفيذ الأوامر، وإنه كان مواليًا لهم منذ البداية... بل سيقول أنه تعمد تأخير التحرك؛ حتى يمنحهم متسعًا من الوقت لإتمام الانقلاب... لكنه تعجب أن يستدعيه قادة الانقلاب من أجل ذلك. لماذا لا يكتفون بمحاكمته محاكمة عسكرية؟ ربما يريدون التشفي فيه قبل محاكمته... لكن هل ما فعله يستحق كل هذا الغل؟

ركب رضوان سيارته متجهًا إلى القصر، وقد ارتدى أفخم بدلة، وأفخم رابطة عنق لديه، وعقله يذهب يمينًا ويسارًا بألف سؤال: ترى من سيقابله؟ وكيف سيقابلونه؟ وكيف وأين سيكون بعد ساعة من الآن؟

لكنه ما أن وصل إلى القصر الجمهوري ببوابته السوداء العملاقة، حتى فوجئ باستقبال حافل من قِبَل الحرس... كانوا جميعًا يعلمون مسبقًا بقدومه، وينادونه بـ "سيادتك"،

ويرحبون به بالابتسامات وعبارات المجاملة... قام كبير الحرس بتوصيله إلى السكرتارية الذين رحبوا به بدورهم أشد ترحيب. ثم أدخله أحد أفراد السكرتارية في صالة فسيحة كان بها حوالي عشرون ضابطًا — تعرف بينهم على اللواءين، والعقيد، وذلك الضابط الذي شاهده يلقي الخطبة في التليفزيون— يجلسون على مائدة تمتد بطول الصالة... استقبلوه استقبالًا حارًا، ثم دعوه للجلوس وعرَّفه اللواء مهران على زملائه: جميعهم لواءات وعمداء في المدفعية، والطيران، والدفاع الجوي، والصاعقة. بدأوا معه حديثًا وديًا ضاحكًا جعله ينسى هيبة اللقاء، وبغضه لقادة سلاح المشاة الثلاثة... وفجأة سكتوا جميعًا كما لو كان بينهم اتفاق مسبق، وتغير وجه اللواء مهران؛ ليبدو أكثر جدية، وقال بهدوء:

" إن عصر القمع والاستبداد الذي عشناه مع اللواء حجازي، قد ولى إلى غير رجعة بمشيئة الله... وسندخل الآن في عهد جديد، يكون للقانون فيه الكلمة العليا، وتطبق فيه مبادئ العدالة والحرية بشكل فعلي، وليس حبرًا على ورق، كما كان في العهد السابق... ولكننا الآن نمر بمرحلة انتقالية، نحتاج فيها إلى رجل شريف، وحكيم، يعرف كيف يمسك بزمام الأمور، ليقود بلادنا إلى بر الأمان. ولقد تشاورنا كثيرًا في الشخص الكفء لتلك المهمة...." سكت لحظة، ثم نظر إلى رضوان مبتسمًا، وقال وهو يضغط على كل حرف:

"ولم نجد أفضل منك لتولي هذا المنصب."

ظل رضوان محدقًا في وجه مهران، وخيل له أنه قد أساء الفهم، إن لم يكن قد أساء السمع، فأكد له مهران:

" سيادة اللواء جلال رضوان، نريدك أن ترشح نفسك لمنصب رئيس الجمهورية في الاستفتاء القادم."

ظل رضوان متسمرًا بعض الوقت، ثم ظهرت على وجهه ابتسامة طفولية عريضة، وتمتم:

" أنا؟"

خبط مهران على ذراعه برفق، وقال:

" لقد اخترناك لسمعتك في القوات المسلحة كرجل شريف ومجتهد. "

سكت رضوان قليلًا، ثم قال:

"لكني أحتاج إلى بعض الوقت للتفكير."

ضحك جميع الضباط، ثم قال اللواء سليم:

"حسنًا... سنعطيك مهلة حتى غد... تأتينا غدًا في الساعة الخامسة مساءً بمشيئة الله للتوقيع على أوراق الترشيح."

عاد رضوان إلى منزله، وهو يشعر بدوار في رأسه من شدة الانفعال... اختلطت لديه أحلام المجد والقوة بقشعيرة باردة من

هيبة الموقف. حضرت في ذهنه، وهو يقود سيارته المتواضعة صورة اللواء حجازي بجسده الفارع، وعينيه الثاقبتين، وملابسه الميري... حين كان يلقي خطبة في البرلمان، كنت تشعر أن الحيطان تتزلزل من صوته العالي الأجش، وقبضته الهائلة تتحرك في الهواء، حتى تتخيل أنها ستهوي على رأس أحد الحاضرين فتهشمها... ثم حاول أن يتخيل نفسه في محله، بوجهه الفلاحي الطيب، وجسمه القصير، وكرشه المتدلي (منذ أن ترك العمل الميداني)، فلم يستطع أن يمنع نفسه من التبسم.

ما أن عاد رضوان إلى المترل، حتى جمع ليلى والأبناء ليقص عليهم الخبر. أكد لهم أكثر من مرة – وحلف على المصحف – أنه لا يمزح، فاحتضنته ليلى وهنأته بحرارة، وقفز الأولاد على رقبته. قضت العائلة أمسية طويلة يتحاكون فيها أحلامهم إذا ما أصبح كل منهم إما ابنًا للرئيس، أو ابنة الرئيس، أو زوجة الرئيس... تكلموا، وحلموا، وضحكوا حتى تأخر الوقت، فطلبت ليلى من الأولاد أن يذهبوا للفراش؛ حتى لا يتأخروا على المدرسة في اليوم التالي. اطمأن الزوجان إلى أن الأولاد قد ناموا، ثم خلدا إلى الفراش، فأسر رضوان إلى زوجته:

"- إني متردد في قبول المنصب... أخشى ألا أتمكن من تحمل مسئوليته أمام الله."

أنت إنسان طاهر القلب، ومتزن، وتراعي ربك في كل أمور حياتك... سترعى هذا البلد أفضل من غيرك. " لم تزد ليلى، وكما توقعت، كانت الجملة على بساطتها كفيلة بأن ترضي ضمير زوجها.

لم ينم رضوان طوال الليل... ظل يفكر في سبب اختيـاره الغامض لهذا المنصب... لقد قال له مهران إنه ضابط شـريف ومجتهد... لكن هل هو الضابط الوحيد "الشريف والمجتهد" في البلاد؟ وقال أيضًا إن البلاد تحتاج إلى رجل حكيم... ولا شك إنه رجل حكيم، فهو دائمًا ما يتجنب الوقـوع في المـشاكل. لكن لم تلبث أن راودته فكرة مزعجة: ربما يكـون "حـراس الشعب" قد اختاروه لأنهم يرون فيه رجلًا ضعيفًا، قليل الحيلة، تسهل السيطرة عليه... نعم، فهذا ما يفـسر اتفـاقهم علـى ترشيحه بعد أن كانوا يرفضون حتى إشراكه في مخططـاتهم... نعم لا شك أنهم يحتقرونه... وليس ثمة دليل على ذلك أفـضل من طريقة مهران الأبوية، وهو يخبط على ذراعه، وكأنه يكبره بثلاثين عامًا... ثم ضحكتهم المستهزئة حـين طلـب مهلـة للتفكير، ولسان حالهم يقول: "إننا نمنحك فرصة لم يكن لمثلك أن يحلم بها أيها الأبله، فكيف تجرؤ على التفكير؟" ... تقلـب في الفراش، وتنهد بعمق، وهز رأسه كما لو أنه يحاول أن يطرد منها تلك الأفكار المزعجة... ثم قال في نفـسه إن الله يمـنح المناصب لمن لا يسعى خلفها... إن من رشحه لهـذا المنـصب ليس مهران أو رفاقه، بل هو الله مكافأة له على نقاء سـريرته،

وحرصه على دينه... استراح لهذه الفكرة، ووضع رأسه على الوسادة، وخلد إلى النوم.

* * *

اجتاز رضوان الاستفتاء بنجاح باهر، كما كان مهران وزملاؤه يؤكدون له. لم يأبه كثيرًا بتفسير هذا الفوز المذهل الذي بُشر به مسبقًا، فالنتيجة إنه قد فاز وأصبح رئيسًا. بدا رضوان في بداية عهده بالرئاسة أشبه بطفل يكتشف لعبة جديدة، حيث قضى أغلب ساعات الفراغ في الأسابيع الأولى في اكتشاف – وإعادة اكتشاف – جميع أركان القصر الجمهوري، الذي لم يكن يتصور أن يوجد مثله على وجه الكرة الأرضية... الطرقات الطويلة المفروشة بالسجاد الأحمر الفخم، الأسقف المزركشة شاهقة الارتفاع التي يتدلى منها النجف الكريستال الضخم... الحدائق المقسمة إلى أشكال مربعة ومثلثة بدقة متناهية، كأنها خرجت لتوها من لوحة كلاسيكية تصور قصرًا من قصور القرن السابع عشر... أما السيارة المرسيدس الفارهة التي كانت تقله في كل مشاويره، فلم يكن قد رأى مثلها سوى في الأفلام الأمريكية... ناهيك عن الحرس الذين يضربون له تعظيم سلام كلما مر أمامهم، والشخصيات المرموقة التي تناديه بـ"سيادة الرئيس" ، وعن ظهوره شبه اليومي في التليفزيون والجرائد (وإن كان أغلب أعضاء "حراس الشعب" يظهرون أكثر منه)... باختصار عاش رضوان كأنه في حلم وردي، لا يريد أن يفيق منه أبدًا.

في غمرة هذا الحلم، لم يأبه رضوان كثيرًا، أو لنقل لم يأبه إطلاقًا، بتأكيد سلطته، وممارسة اختصاصاته كرئيس للبلاد... فتقبل بصدر رحب قائمة الأسماء التي فرضها عليه "حراس الشعب" لتشكيل الوزارة الجديدة، حتى أنه لم يختر إلا وزيري الزراعة و الطيران... كما فرضوا عليه مستشاريه السياسي والاقتصادي، فلم يعترض... وأخيرًا فإنه كان يستمع باهتمام وإنصات إلى توجيهاتهم في صياغة خطبه. كان الضباط يجتمعون معه كل ثلاثاء، ويتظاهرون بالتشاور معه، ثم يقررون في نهاية الاجتماع أمرًا يطالبونه بتنفيذه... ومع مرور الوقت أصبح أسلوبهم أكثر وقاحة، حتى صاروا يتحدثون إليه بابتسامة ساخرة، و أحيانًا يرفعون صوتهم قليلًا وهم يخاطبونه... بل إن اللواء سليم صدرت منه زلة لسان فسأله في إحدى المرات إذا ما كانت قد وضحت له "التعليمات". كان رضوان يشعر أحيانًا بالمهانة، لكنه كان يقول في نفسه أنه لا يملك خيارًا آخر، فهو لا يفقه ألف باء السياسة...

مضى حوالي عام على هذا المنوال... وكأي طفل يشعر بعد حين بالملل من لعبته، بدأ رضوان يسأم قليلًا من السيارة المرسيدس وحياة القصر الجمهوري التي بدت له أشبه بحياة التنابلة. اصطدم حينئذ بواقعه المر... إنه مجرد دمية يحكم من خلالها هؤلاء الضباط البلاد بيد من حديد...

بدأ شعور رضوان بالمهانة يتحول إلى غضب، ثم بدأ الغضب يتحول إلى مقت، خاصة تجاه هذا العقيد صبري الواثق بنفسه

كالطاووس، رغم إنه يصغر الضباط جميعًا في السن... ومع ازدياد المقت، بدأ الحلم يراوده في التخلص من هؤلاء الضباط كتلة واحدة. لكن كيف يتخلص منهم، وكل منهم مدرسة في الألاعيب والمناورات السياسية؟ إن مؤامرة بسيطة من أقل هؤلاء الضباط شأنًا تكفي ليس للإطاحة به من الرئاسة فحسب، بل لتلفيق كيل من قضايا الفساد والرشوة واستغلال السلطة، والزج به في قاع زنزانة مظلمة حتى ينساه كل من على وجه الأرض. الأفضل له أن يسعى في الوقت الحالي إلى إشراك نفسه في المخططات التي يرسمونها، لعله يحظى بقدر صغير من احترامهم... إلى حين تبدو له الأمور أكثر وضوحًا.. بدأ رضوان بالفعل يشارك "حراس الشعب" في اجتماعات يوم الثلاثاء، ببعض الآراء والملحوظات بعد أن كان يكتفي بالصمت، أو بإبداء الاستحسان والموافقة على آراء الآخرين... اقترح تفتيش المصلين عند مداخل الجوامع من أجل القضاء على أعضاء جماعة "نور الهدى" ، وإقامة مصانع للطائرات من أجل سد عجز الميزانية... فكان من الطبيعي أن تؤخذ أغلب تعليقاته محمل الدعابة. كان يعود إلى القصر الجمهوري في مساء كل يوم ثلاثاء، وهو يكتم أطنانًا من الغيظ... لكن طبيعة رضوان الدؤوبة كانت تأبى عليه اليأس. فأخذ يرقب الضباط وهم يتشاورون ويتآمرون ويختلفون، لعل "أداءه" في الاجتماعات يتحسن عن ذي قبل.

كان استهزاؤهم به يثير حنقه، بقدر ما كان أحيانًا يفيد منه... حيث كانوا يشيرون في حديثهم إلى صفقات أو تحالفات أبرموها في السر، متناسين تمامًا وجود رضوان في الجلسة. وكأنها كرة من الخيوط المتشابكة تنحل رويدًا رويدًا، بدأت بواطن الأمور تتضح لرضوان ببطء... فمهران، لا جدال، هو الزعيم والأب الروحي لتنظيم ''حراس الشعب''... إلا أنه لا يحب الظهور في الأضواء، فهو كالأفعى (كما يبدو بعينيه الضيقتين الماكرتين) لا يجيد التحرك إلا في الظلام. أما المتحدث الرسمي باسم الجماعة فهو عميد الطيران مصطفى داوود، ذلك الرجل الأنيق، اللبق، سليل العائلات العريقة. أما عن فيلسوف الحركة فهو لواء مدفعية... رجل غريب الأطوار، قليل الكلام، كثير التدخين، يدعى عمر دهشان... كتب أشعارًا كثيرة مناهضة لحكم اللواء حجازي، لم يستطع نشرها طوال فترة حكمه بطبيعة الحال، وإن كان أغلب زملائه في ''حراس الشعب'' يحفظونها عن ظهر القلب؛ من فرط ما ألقاها عليهم. وعلى الرغم من التوافق والتفاهم الذي قد يبدو للوهلة الأولى، فإن ثمة حربًا باردة ما بين هؤلاء الضباط، تظهر بصفة خاصة عند حديثهم عن أحد زملائهم الغائبين. فهذا يحاول الظهور أكثر من غيره في التلفزيون، وذاك يود استقطاب سلاح الطيران في صفه... ويبدو أن هناك شبه اتفاق بينهم على توزيع الحقائب الوزارية على أتباعهم، بما يتناسب مع حجم كل منهم وسطوته في داخل أروقة العصابة وخارجها.

زادت كراهية رضوان لهم بعد أن عرف قذارتهم وألاعيبهم، وتأكد له أنه لا يعدو أن يكون ملاكًا في قلب غابة من الشياطين. ساورته مرة أخرى فكرة التخلص منهم، فواجبه تجاه ربه، وتجاه شعبه، يحتم عليه أن يخلص بلاده من بلاء هؤلاء البغاة...

بدأ رضوان يضيق بمستشاره السياسي الذي فرضه عليه التنظيم. كان يدخل عليه المكتب دون استئذان، ويعرض عليه آراءه دون أن يطلبها منه، ويتصل باللواء مهران؛ ليطلعه على الأخبار قبل أن يتصل به. ضاق به ذرعًا حتى استيقظ ذات يوم أربعاء، بعد أمسية عصيبة تعرض فيها لكل أنواع المهانة خلال اجتماعه مع أعضاء التظيم، وقد اتخذ قرارًا بإقالة ذلك الرجل المزعج مهما كان الثمن. وصل إلى مكتبه واتصل بالرجل ليخبره بقراره. ويبدو أن هذا الأخير قد سارع بالشكوى إلى جميع أعضاء "حراس الشعب"، فاتصلوا واحدًا تلو الآخر برضوان لإثنائه عن قراره، مذكرين إياه بخطورة الاستغناء عن المستشار السياسي في مثل هذه الأوقات الحرجة، ومحذرين – بطريقة دبلوماسية في بعض الأحيان، وفظة في الأحيان أخري – من مغبة استعدائهم. إلا أن الكيل قد فاض برضوان، فأصر على موقفه.

ظل رضوان فترة بعد ذلك دون مستشار سياسي، ورفض كل الأسماء التي اقترحها عليه اللواءات. حتى عرفه ذات يوم أحد أصدقاء ابنه عامر بالدكتور عارف منصور أستاذ العلوم

السياسية، ذي الابتسامة الدائمة، والفكر المستنير، الذي حصل على شهادة الدكتوراة من أكبر جامعات فرنسا. بدا الرجل لرضوان – بلباقته وملامح وجهه الهادئة التي لا تخلو من الذكاء – أنه الاختيار الأمثل، فاتصل به في اليوم التالي؛ ليخبره بقرار تعيينه مستشارًا سياسيًّا.

كان للدكتور عارف دور كبير في قلب موازين القوى لصالح رضوان، فهو رجل ذكي، حاضر الذهن، يجيد اللعب على الحبال. كانت أول نصيحة له هي أن يسلط على كل ضابط – خاصة اللواء مهران – ساعيًا أو خادمةً من ذوي الثقة بالقصر تراقبه، وتنقل له كل تحركاته. بعد ذلك ركز عارف جهوده على أن يظهر رضوان في الصورة أكثر مما يظهر الضباط ، فنصحه بالإكثار من التصريحات في كل المناسبات والأعياد، ومع افتتاح أي مشروع صغير كان أو كبير... كما أوصاه بأن يغير رؤساء تحرير الصحف القومية ممن يشك في ولائهم. مر حوالي عامين على هذا المنوال، كان رضوان يجاهد خلالها في الابتسام في وجه الضباط كلما قابلهم في الاجتماعات أو الاحتفالات الرسمية.

حدثت بعد ذلك في البرلمان مشادة كلامية بين وزير الاقتصاد وبعض النواب؛ بسبب استجواب قدمه أحد النواب عن ظروف المعيشة في العشوائيات... كان رضوان حينئذ قد وعى قواعد اللعبة، فلم ينتظر نصيحة الدكتور عارف، بلْ بادر بتضخيم الأزمة – عن طريق رؤساء التحرير الجدد، وبعض

النواب الذين استقطبهم في البرلمان — ثم أعلن عن تغيير وزاري جديد لمواجهة "الأزمة"، وأطاح برئيس الوزراء، ووزيري الداخلية والدفاع... وكما توقع، قام أنصار "حراس الشعب" بمظاهرات صاخبة استغلها رضوان للقبض على جميع أعضاء التنظيم... وفي غضون ٤٨ ساعة كان الموضوع قد انتهى برمته.

كان شعور رضوان لا يوصف حين تأكد له إنه تخلص إلى غير رجعة من هذا التنظيم. اختلط لديه شعور عميق بالارتياح، بنشوة الانتصار، بجنون العظمة. وفي غمرة فرحته، لم يفت دكتور عارف أن يذكره بواجبه نحو شعبه... فشكّل رضوان لجنة لوضع دستور جديد، يسمح بتعدد الأحزاب وبإجراء انتخابات رئاسية حرة، وتمت صياغته ثم نوقش في البرلمان، وتم التصويت عليه بالاستفتاء الشعبي في زمن قياسي... بعد ذلك قام رضوان بالإفراج عن كبار المعتقلين من قادة جماعة "نور الهدى" الذين يمثلون صداعًا لأي حاكم في البلاد... وأخيرًا قدم مشروع قانون يسمح بإصدار جرائد مستقلة، أو تابعة للمعارضة. كان مع كل قرار يوقعه، وكل خطوة يخطوها نحو الحرية تعود إليه ذكرياته وهو ضابط في بداية حياته، حين كان يتبرع بما تبقى في جيبه من دينارات قليلة لأي طفل محتاج يقابله في الشارع.

* * *

يخفق قلب رضوان وهو يمشي بخطى واسعة بصحبة الدكتور جلال متجهًا إلى إدارة مشاريع الاستصلاح بداخل مبنى وزارة الزراعة...إثناء مروره في طرقات المبني الباردة ، يمر عام كامل من الأحداث كالشريط أمام عينيه...حين قابل لأول مرة ماك جونسون ، رجل الأعمال الأمريكي صديق ابنه عامر، ذا القامة الطويلة، والابتسامة الجذابة، وسيل الكلام الذي لا ينقطـــع... مازال يتذكر حتى الآن حماسه وهو يتحدث عـــن المـــساحات الهائلة من الأرض الخصبة التي اكتشفها على شـــاطئ الـــبحيرة الغربية... وكيف انتقل إليه هذا الحماس كالعدوى، حـــتى أن الحلم قد راوضه في أن يجعله مشروعًا قوميًّا يحمل اسمـــه... و لهفته حين عرض على جونسون – بعد استشارة سريعة لوزير الزراعة، وللدكتور عارف - شراء الأرض لحساب الدولة من أجل إقامة المشروع... فرفض جونسون، وظل رافـــضًا حـــتى اضطر رضوان إلى مضاعفة السعر، وفاز بالأرض.

يصل الرجلان إلى الإدارة... قاعة كبيرة مفروشة بـــسجاد إيراني، بها أربعة كراس فخمة، وأربعة مكاتب جديدة يعمـــل عليها الموظفون، في تناقض صارخ مع الحـــوائط ذات اللـــون الرمادي التي امتلأت عن آخرها بالتشققات والثقوب. يستقبله وزير الزراعة ورجلان قُدم إليه أحدهما على أنه مـــدير الإدارة، والآخر على أنه المهندس المكلف بإدارة المـــشروع. يـــستمع رضوان إلى شرحهما لطريقة تنفيذ المشروع، لمدة لا تزيد عـــن

عشر دقائق، إلا إن أسئلته تستمر أكثر من نصف الساعة... يسأل عن كل صغيرة وكبيرة: المساحة المخصصة للأرز وللشعير، الإيرادات المتوقعة، وسائل الدعاية المتبعة لجذب الاستثمارات الأجنبية... لا يبالي كثيرًا بالإجابات، إلا أن الأسئلة تشبع في نفسه رغبة ملحة باستعراض كل جوانب المشروع أيًا كانت أهميتها، أو عدم أهميتها... حيث تملكه شعور أشبه بشعور الأب حين يشاهد ابنه الرضيع يتعلم المشي، فيفرح بكل خطوة يخطوها مهما صغرت.

يعود رضوان إلى القصر، وهو لا يكاد يسع نفسه من الفخر. يمضي أمسية هادئة في مكتبه الفسيح، فلا يعكر صفوه إلا بضعة قرارات روتينية طُلب منه توقيعها. يعود إلى جناح المعيشة بابتسامة تملأ وجهه، حيث يقابل ليلى التي كانت تشاهد فيلمًا في التليفزيون. يحاول التحدث معها عن مشروعه الضخم، فيجدها أكثر اهتمامًا بمتابعة الفيلم. يهز كتفيه، ويتجه إلى غرفة النوم.

يقضي ليلة سعيدة، يحلم بأن رؤساء العالم يتهافتون على البلاد ليسألوا عن "مشروع جلال رضوان" ويحاولون تقليده في بلادهم... يزوره رونالد ريجان، وجورباتشوف، ويتشاجران كالأطفال إذ طلب كل منهما أن ينفذ هذا المشروع العظيم في

بلده أولًا. ويزوره نابليون الذي يعاين مساحة الأرض الزراعية الشاسعة بنظارته المكبرة، ويبدي انبهاره بعبارات فرنسية لبقة. كما يأتي هتلر للزيارة، ويبدي غيرته من أن بلاده لم تصل إلى درجة التقدم التي وصلت إليها بلاد رضوان.

في صباح اليوم التالي، يتناول رضوان إفطاره مع كوب القهوة على مهل كعادته، ثم يذهب إلى مكتبه ليجد الجرائد اليومية في انتظاره... يحرص رضوان يوميًّا على قراءة جريدة على الأقل من جرائد المعارضة (غالبًا ما تكون جريدة صوت الأحرار) ليشعر أنه يقوم بواجبه كاملًا كرئيس دولة يؤمن بالديمقراطية تمام الإيمان. يبدأ بمطالعة جريدة صوت الأحرار... ويا للهول! مشروعه العظيم الذي يفاخر به الدنيا، تصفه الجريدة بأنه يهدر المال العام، ويستهين بعقول الشعب! كيف يجرؤ هؤلاء على أن يطلقوا مثل هذه الأوصاف البشعة على مشروع قومي بهذا الحجم، يفتخر به كل مواطن في البلاد! إذا استكثرت عليهم الإشادة بالمشروع، فعلى الأقل ليلتزموا الصمت!

كعادته عندما يقرأ مطلع خبر يغضبه، يغلق رضوان الصحيفة جانبًا مكتفيًا بقراءة العنوان... يسكت لحظة مفكرًا، جامعًا يديه أمام وجهه، ثم يدير قرص الهاتف...

"دكتور عارف؟ تعال سريعًا... أحتاجك الآن."

لا تمضي أكثر من ربع ساعة، حتى يصل الدكتور عـــارف. يتمتع الدكتور عارف بقدرة خارقة ليبدو أنيقًا ومبتسمًا في أي وقت يطلبه فيه الرئيس، مما يثير إعجاب هذا الأخير كثيرًا. يحييه رضوان شفهيًّا بلا ابتسامة، ثم يناوله الجريدة. يقرأ عارف رأس الخبر، ويتمتم ببعض عبارات الاستياء، ثم ينظـــر إلى رضـــوان ولسان حاله يقول: "و ما المطلوب مني؟ " يرد رضوان إليـــه النظرة المتسائلة... نعم، لماذا استدعاه... إنه لم يفكر في ذلـــك حين اتصل به، ربما كان يريده كصديق يفضي إليـــه بـسخيفه فحسب... يحيد بنظره عن عارف، ويقول بلهجة يحـــاول أن يجعلها محايدة ليضفي على المناقشة طابعًا رسميًّا:

-لا أفهم لماذا يسعى البعض إلى الإساءة إلى أي مـــشروع قومي ناجح.

- أعداء النجاح كثيرون يا سيدي الرئيس.

- لكني أخشى أن يصدق الناس تلك الحماقات. لمـــاذا لا يمكن أن نمنع هؤلاء المخربين من نشر مثل تلـــك الإشـــاعات المغرضة؟

- لا تنس يا سيدي الرئيس، إننا على رأس دولة ديمقراطية، وإن حرية التعبير هي أحد مبادئك الأساسية في الحكم. " هكذا يقول عارف بلهجة قاطعة، ووجهه — بالرغم مـــن ابتـــسامته الدائمة — ينطق بالصرامة. ينظر إليه رضوان بابتسامة صـــغيرة ويومئ برأسه موافقًا.

٣

يجلس إبراهيم على كرسيه المعتاد المواجه لكرسي شمس... كانت قد أعدت كوبًا الشاي، وبعض البسكويت، وجلست تنتظره... ما أن يجلس إبراهيم حتى تقول:

" هناك إعلان في جريدة الوطن عن رحلة إلى الاتحاد السوفييتي لمدة عشرة أيام، بألف وخمسمائة دولار فقط لفردين تشمل..."

ينفجر إبراهيم ضاحكًا... تنظر شمس إليه بدهشة، وتسأله: "ماذا بك؟"

يرد إبراهيم، ومازال يضحك:

" – ألم تجدي بلدًا أسوأ حالًا من تلك؟ الناس جميعًا هناك يحاولون الهرب منها، فكيف نأتي إليها بمحض إرادتنا؟ "

ترد شمس، ويبدو على صوتها بعض الضيق:

"إبراهيم، إنها الفرصة الوحيدة المتاحة لنا للسفر للخارج. وأنت تعلم أنها أمنية حياتي... اعتبرها هدية العمر يا إبرهيم.

– بنفس المبلغ يمكننا قضاء أسبوعين في مصر أو لبنان."

تزفر شمس، وتميل برأسها جانبًا، وتسدد إلى إبراهيم نظرة لائمة.

"- إذا كنا سنذهب إلى بلد عربية، فالأفضل أن نبقى هنا، ونقضي الأجازة على شاطئ البحيرة... إبراهيم أنا لم أخـرج في حياتي من هذه البلد المنكوبة... إنها أول - وغالبًا آخـر- فرصة لي للسفر في الخارج... أتمنى أن أرى دنيا أخـرى... أن أسمع لغة مختلفة..."

يطرق إبراهيم مفكرًا... تربط شمس على يده وتـستطرد، كأنما تقرأ ما يدور في ذهنه:

" أعلم أن المبلغ كبير... لكن الرحلة في أغسطس، ومازال أمامنا خمسة أشهر... إذا ادخر كل منا قليلًا من مرتبه، وأضفنا المبلغ الذي كنا ننوي أن نشتري به الغـسالة، فأعتقـد إنـه سيكفي. على كل حال لن نجد فرصة مماثلة بنفس السعر."

يتنهد إبراهيم، ثم يقول:

" - وماذا سنفعل بالأولاد؟

سيكونون في إجازتهم الصيفية... يمكننا أن نتـركهم مـع والدتك. "

يتردد إبراهيم قليلًا، ثم ما يلبث أن يهـز كتفيـه ويعلـن استسلامه لإلحاح زوجته.

* * *

"حضرات السادة الركاب، برجاء ربط أحزمتكم فـسوف نقلع في خلال دقائق."

يربط إبراهيم حزامه، وهو يتذكر تجربته الوحيدة مع الطائرات، حين استقل الطائرة مع والديه وإخوته إلى لبنان، وهو في الرابعة عشر من عمره. كم كانت رحلة سيئة، فقد كادت أذناه تنفجر مرة أثناء الإقلاع، ثم مرة أخرى أثناء الهبوط... كما أصابه الغثيان حين مرت الطائرة بمطبات هوائية حتى تقيأ كل ما أكله في وجبة الطائرة. لكن على الأقل، كانت تنتظره بعد عناء بلد جميلة، تعتبر من أجمل البلاد العربية، وأكثرها انفتاحًا وخضرة... أما في هذه الرحلة، فإنه سيهبط ليجد نفسه في مكان أكثر تخلفًا وبؤسًا من ذلك الذي يعيش فيه... على كل حالٍ هو لا يبغي من وراء هذه الرحلة إلا رضاء زوجته.

تصل الطائرة إلى موسكو في المساء... بعد الخضوع لثلاث دفعات من التفتيش، ولإجراءات أمنية معقدة، يخرج إبراهيم وشمس ليجدا أوتوبيس شركة السياحة في انتظارهما. تصعد شمس وتحيي السائق، فيومئ برأسه بأدب لا يخلو من الصرامة. يتحرك الأوتوبيس نحو قلب المدينة في ظلام شبه تام... بعد قليل يتمكن إبراهيم من تمييز بعض المباني، والأشجار، ولافتات المرور... تبدو له الشوارع العريضة الخالية من المارة - في ضوء أعمدة النور الخافت - أشبه بمدينة أشباح... ينظر إلى شمس فيجدها تغط في النوم.

يستيقظ إبراهيم في اليوم التالي على صوت شمس الذي يهدهده كالطفل: "إبراهيييم... الساعة الثامنة..."

"لكننا لن ننطلق قبل الساعة التاسعة... اتركيني أنام قليلًا..."

تمسح بيدها على كتفه، وتطبع قبلة على خده، ثم تقول بحنان:

"اليوم زيارة الكريملين... وأخشى حقًا أن تفوتنا."

يقوم إبراهيم ببطء، وهو يتمتم ببعض عبارات الشكوي... لقد سمع عن هذا الكريملين من قبل... يقال إنه تحفة معمارية نادرة، وأثر ذو قيمة عالمية، وما إلى ذلك. نفس ما يقال عن تلك القصور الرومانية التي تملأ الشوارع والميادين في بلاده، والتي غطتها الأتربة والمخطوطات اليدوية، حتى لم يعد من الممكن تمييزها عن بيوت العشوائيات، إلا من حيث الحجم... على كل حال، الأمر برمته لا يتعدى عشرة أيام سيقضيها بطولها وعرضها لإسعاد زوجته، ثم يعود إلى أولاده ومكتبه وفنجان قهوته.. يركب إبراهيم الحافلة وهو يتثاءب، ويتظاهر طوال عشر دقائق بالاستماع إلى شمس، وهي تشرح له تاريخ الكريملين الذي قرأته في الكتيب السياحي في الطائرة، بينما هو يفكر في الوقت الذي ستستغرقه تلك الزيارة... وما أن تنتهي سردها للأحداث حتى يحمد الله في سره، ويغلق عينيه، ويستسلم للنوم...

يفتح عينيه بعد دقائق ليجد أمامه أبراج حمراء وبيضاء، تعلوها قمة من النحاس، تشبه تلك التي كان يراها في كتب ألف ليلة وليلة التي كانت والدته تقرأها عليه وهو طفل... لابد

أنه يحلم... يغلق عينيه مرة أخـــرى، إلا أن صـــوت المرشـــد الأجش يعود به إلى أرض الواقع:

" ها نحن نرى على الجهة الأخرى من الجسر قصر الكريملين بأبراجه الرائعة..."

تقف الحافلة أمام الباب الرئيسي مباشرة، فـــيترل المرشـــد ويتفاوض لبضعة دقائق مع الحراس. يعـــود بعـــد دقـــائق إلى الحافلة، ويدعو الجميع إلى الترول بابتسامة لطيفة، وإشارة مـــن يده، فيتبعونه إلى داخل القصر... يقود البـــاب الخـــارجي إلى داخل برج المراقبة المظلم، ثم إلى الفناء الداخلي للقصر... أول ما يلفت نظر إبراهيم هو تلك المساحات الهائلة من الحـــدائق المنتشرة في كل ركن من أركان الفناء، تبدو جميعها على درجة متساوية من الاخضرار... أما المبنى الرئيسي للقصر على يـــده اليمنى، فيبدو بلونه الأبيض الناصع، وحوافه الصفراء، وســـقفه الفستقي، كما لو كان قد تم بناؤه بالأمس... يسأل إبـــراهيم المرشد مندهشًا:

"متى بني هذا القصر؟"

يجيب المرشد بفخر:

" ما بين القرن الخامس عشر، والقرن التاســـع عـــشر يـــا سيدي."

تستغرق الزيارة أربع ساعات كاملة، يزور فيها الفوج كل أنحاء الكريملين، ما عدا القصر الرئاسي... يستمع إبـــراهيم إلى

المرشد حينًا، ويطلق إلى نظره العنان حينًا آخر في أرجاء القصر. يصعد إبراهيم بعدها إلى الحافلة مع شمس، ممسكًا بيدها كما كان يفعل وهما عائدان من السينما في عامهما الأول من الزواج... يصعد بعدهما المرشد، ولم يكن إبراهيم قد دقق بعد في ملامحه في غمرة انبهاره بالقصر... ثمة حزن عميق ينعكس على صرامة وجهه القاتمة، تجعله أشبه بالسائق الذي أقلهما بالبارحة... يصل جميع السياح ثم تتحرك الحافلة بعد ذلك متجهة إلى دير نوفوديفيتشي .. تمضي الأيام الأربعة التالية سريعة في زيارات لكنيسة السانت بازيليك التي تقع في "الميدان الأحمر" الشهير، ومسرح البولشوي العريق، حيث يشاهد إبراهم وشمس مع باقي الفوج باليه بحيرة البجع، ثم متحف البوشكين للفنون الجميلة، ومعرض الترتياكوف. ولم يكن الوقت الذي يقضونه في التنقل من مكان إلى آخر يضيع هدرًا، حيث كانوا يتجولون بالمترو بين محطات موسكو ذات الرسومات والزخارف الرائعة، وكان المرشد يقف في كل محطة؛ ليشرح معنى اللوحات التي تزينها، وسبب وجودها في هذه المحطة أو تلك. يتجه الفوج بعد ذلك بالقطار إلى مدينة نوفوجورود القديمة في الشمال، ثم مدينة سانت بترسبورج التي تبعد قيلًا عنها... ثم تنتهي الرحلة بزيارة لمدينة سرانسك في الجنوب، التي تسكنها شعوب مختلفة ضمت منذ مئات السنين – راغبة أو راهبة – إلى روسيا الاتحادية.

لكل مدينة ألوانها وروائحها وتماثيلها، إلا أن أكثر ما يلفت نظر إبراهيم هو تلك الصرامة التي تكسو الوجوه باختلاف الألوان والسحنات، وهذا الحزن الدفين الذي يبدو في ظلال الابتسامات وعبارات الترحيب اللبقة التي تنطق باللغات المختلفة... وكأن سكان روسيا الاتحادية، بمختلف بشراتهم وألسنتهم وأشكالهم يرون في مناهم كابوسًا واحدًا غامضًا، لا تنطق به أحجار الكرملين الصماء، ولا يراه من يزور تلك البلد الرائعة.

٤

استقل خالد وهاشم الأوتوبيس منذ الصباح، بينما نزل وائل بعدهما بدقائق (فقد اعتاد التلكؤ؛ ليتفادى الترول مع أخويه الصغيرين) . تبقى لإبراهيم دقائق معدودة يقضيها في هدوء قبل الذهاب للعمل... يجلس في المطبخ تناول قهوته، بينما شمس تعد لنفسها خبزًا بالزبد والمربى. تأخذ طبقها، وتأتي لتجلس معه، فإذ به يلحظها تجز على أسنانها في ألم.

"ماذا بك؟ "

لا تجيب بل تضع يدها في منتصف صدرها، وتنحني إلى الأمام. يقفز إبراهيم من كرسيه، ويمسك بذراعها في هلع.

" ماذا بك؟!!"

تجحظ عيناها فجأة، وتميل برأسها إلى الخلف، ويتشنج جسمها لمدة ثانية، ثم تكاد تسقط على الأرض قبل أن يمسك بها إبراهيم... يمسك بخصرها، ويدفعها إلى الأمام بعصبية حتى أقرب كرسي، وهي تنصاع له كأنها دمية كبيرة... يتركها "تجلس" في وضعها المائل، ويجري نحو الصالة ليتصل بالإسعاف.

تمر بضعة دقائق، تبدو لإبراهيم كبضع ساعات، يدق بعدها الجرس... يفتح إبراهيم بلهفة، فيجد رجلين يرتديان ملابس التمريض، يمسكان بنقالة مطوية. يسأله أحدهما بلهجة روتينية:

" أين المريضة؟" قبل أن ينطق الممرض بكامل السؤال، يشير إبراهيم لهما ليتبعاه إلى المطبخ.

يمسك الممرض بمعصم شمس ويقول:

" حظك جيد... مازال قلبها ينبض."

يتنهد إبراهيم في ارتياح، ويتمتم بحمد الله، بينما يمسك الممرضان بشمس ليضعاها على النقالة. يفتح إبراهيم الباب ويسبق الممرضين، ويظل يستحثهما على الإسراع، حتى يطلبا منه الهدوء.

* * *

يراقب إبراهيم زوجته، وهي تتنفس بعمق من داخل القناع، وأسلاك مؤشر ضربات القلب تحيط بصدرها. يداعب شعرها الأسود من آن إلى آخر، وهو يراقب صعود وهبوط ضربات قلبها على الجهاز، كأنها موجات البحر... أما الممرضان فيجلسان على الأريكة المواجهة له داخل السيارة في صمت تام. ينطلق السائق بمهارة وسرعة فائقتين في الشوارع المزدحمة، حتى أن إبراهيم كاد أن يرجوه تهدئة السرعة، لولا خوفه أن تصل شمس متأخرة إلى المستشفى . بعد بضع دقائق تبطئ السيارة فجأة، ثم تتوقف تمامًا... يتمتم إبراهيم كما لو أنه يطمئن نفسه:

" لعلها إشارة التقاطع..." يقولها وهو ينظر من النافذة. إلا أن المنظر الذي يراه لا يبعثه على الاطمئنان مطلقًا... فهناك

على الأقل أربعة أو خمسة صفوف من السيارات تمتد متوقفة أمام سيارة الإسعاف... ينظر إلى الممرضين ليستمد من برودهما اطمئنانًا، فيجدهما ينظران بدورهما من النافذة المواجهة، وهما يغمغمان بكلمات غير مفهومة...

"- ماذا هناك ؟

موكب الرئيس يا سيدي.

موكب الرئيس؟ ألن يدعونا نمر؟

وكيف نمر وكل تلك السيارات مكدسة أمامنا؟

إذن ما الحل؟

وماذا عسانا أن نفعل؟ سننتظر حتى يمر الموكب. "يقولها الممرض وهو يهز كتفيه.

"سأنزل لأخبرهم بأن هناك حالة حرجة في السيارة." يقولها إبراهيم وهو يهم بالقيام، إلا أن الممرض يمسكه من كتفه بعنف ويكاد يجبره على الجلوس.

" لا داعي للمشاكل... إنهم يرون سيارة الإسعاف على كل حال."

يقاوم إبراهيم ويخلص ذراعه، ويمضي دون أن ينظر إلى الممرض، إلا أن زميله يمد ذراعه لمنعه من الخروج قائلًا بحدة:

" إلى أين أنت ذاهب؟ إذا تكلمت مع الضباط وأنت في هذه الحالة من العصبية فلا بد إنك ستتسبب لنا في مشاكل... سننتظر بعض الوقت وسيمر الموكب."

ينظر إليه إبراهيم في تردد، فيواصل الرجل بلهجة أقل حدة وقد ترك ذراعه:

" في مرة سابقة، كان معنا فتاة في حالة حرجة ومعها أبوها... وتأخرنا قليلًا في الإشارة، فترل الأب وتحدث بعصبية مع الضابط... فكانت النتيجة أن الضابط قام بسحب رخصة السيارة، واحتجزنا لنصف ساعة إضافية... أرجوك لا تغضب الضباط."

يعض إبراهيم شفتيه، ويجلس في صمت خوفًا من إغضاب الضباط.

تمر الدقائق بطيئة على إبراهيم وهو ينظر بين الحين والآخر من النافذة، ويهز قدميه، ويمرر يده في شعر شمس بحركة سريعة... ينظر في الساعة ويتأفف، ثم يخرج علبة سجائره، إلا أن الممرضين ينهرانه... يحاول الترول مرة أخرى، إلا أن الممرضين يمسكانه عن ذلك بمزيج من التوسل والتحذير من غضب الضباط. تمر حوالي نصف ساعة، وإبراهيم يتابع أنفاس زوجته الرتيبة في الجهاز...

فجأة، يتوقف صوت التنفس العميق ليحل بدلًا منه صمت ثقيل... وفي ذات الوقت تتوقف الأمواج الصاعدة والهابطة

على المؤشر لتسير في خط واحد مستقيم... قبـل أن ينطـق إبراهيم بكلمة، يميل الممرض الذي يجلس في مواجهة إبـراهيم على شمس ويخلع قناع الأوكسجين، ثم يـضع يديـه علـى صدرها، ويضغط عدة مرات على التوالي بقـوة جنونيـة... تصعد موجات المؤشر وتهبط مـرة أخـرى وإبـرهيم يتـابع مستسلمًا، لا يقوى على الكلام ولا على السؤال. يميل الممرض على شمس بجثته الضخمة، ويقبل شفتيها بعنف ثم يـستمر في الضغط بيديه... يكرر الممرض ذات الحركات أكثر من مرة، ثم يبتعد قليلًا عن شمس، وينظر إلى المؤشر، فيجده قـد عـاد إلى وضع السكون. ينقض مرة أخرى على شمس بعنف أكثر مـن ذي قبل، ويضرب على صدرها حتى يكاد يهشم ضـلوعها... يتوقف بعد بضع دقائق أخرى، وهو يلهث ويتـصبب عرقًـا، ليجد المؤشر قد توقف عن الحركة مرة أخـرى. يتراجـع إلى الخلف، ويشير إلى زميله؛ ليستكمل بـدلًا منـه... يتبـادل الممرضان المجهود، والمؤشر يعلو ويهبط، وقلب إبراهيم ينـبض معه، وينبض أكثر حين يتوقف المؤشر عن الحركة... تـستمر العملية لأكثر من عشرين دقيقة.

ثم تأتي اللحظة... يدير الممرض رأسه إلى إبراهيم لاهثًا ويهز رأسه بحرج... لا ينطق إبراهيم بكلمة... ينظر حائرًا مستفهمًا، متوسلًا أن يكون قد أساء الفهم... إلا أن الممرض الآخر يضن عليه بمثل هذه الرحمة، فيقوم ببطء أبدي ليخلع الأسلاك مـن عنى جسد شمس. تبدو لإبراهيم يديه الكبيرتين المشعرتين، وهما

تعبثان بالأسلاك على جسدها أشبه بيدي أبليس حين تظهـــر صورته في قصص الأطفال... بعد أن ينتهي مـــن الأســـلاك، تتوجه يداه بذات الــبطء البـــارد المخيـــف ناحيـــة قنـــاع الأوكسيجين... بل ربما تكون يداه في هذه اللحظة هي يـــدا عزرائيل... لا يجوز مقاومتها... لا تبدي شمس أدنى اعتراض، ولا يصدر منها شجب أو استنكار، والرجل ينزع عنها قنـــاع الحياة... لم يبد وجهها يومًا على هذه الحالة من الوداعة... ولم يبد جفناها ولا شعرها الملقى على خديها علـــى مثـــل هـــذه الدرجة من الاستسلام... يغطي الممرض وجهها تحت الملاءة، وهو ينطق بـــ"لا حول ولا قوة إلا بالله"....

يغلق إبرهيم عينيه؛ ليرى شمس وهي تعد الخبز هذا الصباح، ثم ابتسامتها وهي خارجة معه من السينما تمسك بيده وهمـــا في العام الأول من الزواج... يفتح عينيه فيجد المـــلاءة الخـــضراء القاتمة تغطي جسدها الساكن... يهز الساعة في يده، وينظر إلى موقع قدميه....تدور به الأرض لتهبط به إلى الأعماق...

* * *

حين تكون الواقعة، ويكون الحزن أكبر من طاقتنـــا، فإننـــا نكون أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن نستـــسلم استـــسلامًا تامًا، وأن نعيش باقي أيامنا كالأموات بحيث لا يهزنا هـــم ولا فرح ، وإما أن نثور ثورة عارمة مدمرة على من كان ســـببًا في هذا الحزن. وقد أخذ إبراهيم بالخيار الثاني. ربما بسبب صورة أولاده الثلاثة التي تراءت له في تلك اللحظـــة، فمنعتـــه مـــن

الاستسلام... أو ربما أن ثمة آلاف من القنابل قد نبتت في رأسه خلال سنين من العمل الروتيني، وتسول المال القذر من أصحاب الملفات المتأخرة، و ركوب الأوتوبيس المكدس مثل علبة السردين – انفجرت تباعًا كسلسلة من البراكين ظلت خاملة مئات من السنين... المهم أن إبراهيم ظل لمدة دقائق مغمض العينين، بدا خلالها إنه يحاول استيعاب الموقف، ثم ما لبث أن قام من كرسيه، وقفز خارج السيارة قبل أن ينبس أي من الممرضين بكلمة. كانت الدنيا قد تحولت في عينيه إلى أعداء... السيارة... الضباط... الشارع... الأشجار... لم يعد يرى فيها سوى أعداء. يندفع إبراهيم كالسهم إلى ضابط يقف قريبًا من سيارة الإسعاف... يلتفت إليه الضابط، وقبل أن يتمكن من التعبير عن دهشته، يكون هذا الأخير قد أمسكه من ياقة قميصه، ويهزه بعنف وهو يصرخ:

" ماتت شمس أيها الكفرة... شمس... شمس أيها الوحوش!!! " ويبدو أن الضابط قد شلت حركته تمامًا من المفاجأة، فلا يحرك أنملة بينما إبراهيم يهزه كالدمية... إلا أن زملاءه سريعًا ما يتداركون الموقف، فيسرع ضابطان آخران نحو إبراهيم، ويجذبه أحدهما من قميصه، بينما الآخر يمسك بذراعه ويبعدانه عن زميلهما المسكين، وإبراهيم مازال يصرخ وقد جحظت عيناه عن آخرهما من الغضب:

" سأقتلكم جميعًا... أنتم وهذا الوغد الذي تحرسونه... قتلتم شمس أيها الـ.." قبل أن يتم إبراهيم كلمته، تكون قبضة

الضابط الذي يمسك بذراعه قد هوت على فكه مفجرة خيطًا من الدم، يترنح إبراهيم قليلًا ثم يحاول أن يتحرر ليرد الضربة فتهوي عليه لكمة ثانية ثم ثالثة، حتى يشعر بدوار عنيف، ثم يغمض عينيه، ويسقط على الأرض...

* * *

يفتح إبراهيم عينيه بصعوبة، ليجد نفسه مبقى على الأرض في مكان مظلم لا يعرفه... يشعر بصداع قوي، فيغلق عينيه ويضغط على رأسه بيديه... يزول الصداع تدريجيًّا فيبدأ إبراهيم في تذكر ما حدث له مع الضباط، ثم يتذكر شمس وهي راقدة داخل سيارة الإسعاف وجهاز التنفس يغطي وجهها، والممرض يهز رأسه بيأس... كم من الوقت مر على هذا الحادث؟ وأين هو الآن؟ يفتح إبراهيم عينيه مرة أخرى فلا يرى إلا قضبان يتخللها نور خارجي خافت، ويرى من خلال هذا الضوء الخافت ظلال ثلاثة أشخاص يجلسون على ما يشبه الدكة، يتناولون طعامهم في صمت فلا يُسمع إلا صوت مضغهم المزعج. لا يبدو له أنهم يكترثون به كثيرًا، بل وربما لا يرونه أصلًا... يقول بصوت عالٍ:

"صباح الخير."

يضحك الجميع. ثم يقول أحدهم بصوت خشن:

" الساعة الآن الرابعة بعد الظهر... صح النوم." يضحك زميلاه مرة أخرى، فيقول إبراهيم بنبرة باردة:

"اعذروني... فمن الصعب أن تعرف الوقت وأنت لا ترى نور الشمس."

يقول الرجل الذي حدثه في البداية بذات الصوت الخشن:

"لا عليك... كل المستجدين مثلك... احك لنا عن سبب مجيئك إلى هنا."

يرفع إبراهيم رأسه بصعوبة، ساندًا نفسه على ساعديه. يحاول بذهنه المشتت أن يفكر من أين يبدأ قصته... أيحكي عن زوجته حين أصيبت بالأزمة القلبية... أم يحكي عن مشاجرته مع الضباط... بل لم لا يحكي عن أولاده الذين تيتموا... فجأة يجهش في بكاء شديد كما لو أنه يخرج مخزونًا من الدموع ظل مكبوتًا طوال تلك الساعات... يتمالك نفسه بعد دقائق فيحكي بصوت مكتوم قصته منذ أصيبت زوجته بالأزمة، وحتى اللحظة التي فقد فيها الوعي من أثر الضرب. يبدو له أن الزميلين الصامتين قد تعاطفا معه قليلًا... أما محدثه فيستمع باهتمام لكن ببرود واضح، كما لو أنه يتابع نشرة الأخبار. يعرفه الزميلان الآخران بنفسهما: عصام معتقل ينتمي إلى حركة "نور الهدى" ومهاب معتقل سياسي أيضًا، لكنه ينتمي إلى التيار الاشتراكي. أما زميلهما الثالث سليمان، فهو متهم في قضية سرقة. يحكي مهاب عن قصة اعتقاله:

" كنت طالبًا في كلية الحقوق... كنت في تلك الفترة قد بدأت القراءة في كتب الفلاسفة والمفكرين الكبار... أعجبني

منهم بصفة خاصة كارل ماركس... ربما لأفكاره الهادئة والثورية في آن واحد، أو ربما لأنه جعلني لا أخجل من الطبقة التي أنتمي إليها... (يحاول إبراهيم جاهدًا أن يصب كل تركيزه على حديث مهاب؛ ليمنع نفسه من التفكير في شمس وفي الأولاد)... المهم أني قررت الانضمام إلى التيار الاشتراكي في الجامعة... وبالفعل، تعرفت على زميل اشتراكي يكبرني بعامين، عرفني على باقي زملائه، وبدأت في العمل معهم... من تنظيم مظاهرات، إلى توزيع منشورات، إلى خوض انتخابات طلابية، إلخ... كان هذا الزميل الذي حدثتك عنه – اسمه يوسف جمال الدين - بمثابة أخ كبير، أستمع إلى نصحه، وأستغيث به في الأزمات... وفي أحد الأيام، بعد مظاهرة حاشدة كنت قد شاركت في إعدادها – كانت أيام تعديل قانون العمل، لا أعرف إن كنت تذكرها – فوجئت الساعة الرابعة صباحًا بطرقات عنيفة على الباب أيقظت كل من بالمنزل، وما أن فتحنا الباب حتى دخل أربعة رجال مسلحون بالرشاشات... ومن تلك اللحظة لم أر بيتي أبدًا... كان عمري حينئذ عشرين عامًا (ينصت إبراهيم إلى الرجل وهو ينظر إلى رأسه التي تمكن منها الصلع، وإلى بطنه التي ترهلت) . ما أن وصلت سيارة الترحيلات إلى هنا حتى أدخلوني في زنزانة فردية لا تتعدي مساحتها مترين، ثم استدعوني بعد عدة ساعات للاستجواب... أردت أن ألعب دور البطولة، ورفضت أن أبلغ عن باقي منظمي المظاهرات (كان عمري حينئذ عشرين عامًا!)

فضربوني بأيديهم وبأرجلهم وبعصا غليظة، وصعقوني بالكهرباء، ثم..."

يقاطعه سليمان ضاحكًا:

"وهتكوا عرضك...اعترف."

يشيح مهاب بيده مبتسمًا، ويقول:

" لا تفضحنا أمام زميلنا الجديد... المهم أنهم ظلوا يستجوبونني ويعذبونني على هذا المنوال طوال الأسبوع الأول، حتى أني تخيلت أكثر من مرة أن روحي ستقبض. في إحدى حفلات التعذيب هذه قال لي الضابط: " هل تعرف كيف توصلنا إليك؟ صديقك يوسف جمال الدين هو الذي أرشدنا. ''كنت متماسكًا حتى هذه اللحظة، إلا أني لم أتمالك نفسي من البكاء." يزفر مهاب قليلًا ثم يواصل:

''كنت قديمًا أبغض الشرطة، وازددت بغضًا لها، ولرجالها حين قبضوا علي، وأخذوا في تعذيبي بهذا الشكل... لكنني الآن لم أعد أكرهها بهذا الشكل. فها أنا آكل، وأشرب، وأنام بلا مجهود يذكر... بل لا أبالغ إن قلت لك إني أخشى اليوم الذي سيتم فيه الإفراج عني... فأي مكتب محاماة سيقبل أن يعين محاميًا في الثلاثينات من عمره، ليست لديه أية خبرة عملية، بل وحصل على شهادة الحقوق وهو في المعتقل؟ ومن تلك المجنونة التي سترضى الزواج بمثله؟ إذا خرجت سأكون أشبه بالكلب

الضال، لا مكان لي في هذه الدنيا..." يسكت مهاب قليلًا، ثم يقول:

"أما أكثر ما أكره الآن فهم الاشتراكيين. إنهم ليسوا سوى جماعة من الآفاقين."

يسأله إبراهيم:

"– أتعني هذا اليوسف جمال الدين؟

ليس هو فحسب... بل إنهم جميعًا آفاقون. فالكبار يتحدثون في خطب رنانة عن العدالة الاجتماعية والمساواة وما إلى ذلك من المبادئ الجميلة، ويجلسون في بيوتهم يؤلفون الكتب والمقالات، ولا أحد يتعرض لهم... بينما الشباب الساذج الذي يحركه هؤلاء الناس يتم البطش به، والزج به في السجون، ليضيع فيها أجمل سنين عمره... ذات الحلقة تتكرر مع توالي الأجيال، ولا شيء يتغير... إنها مثل دورة الساقية، معروف بدايتها ونهايتها. "يسكت قليلًا، فيقطع عصام السكوت:

"المشكلة الحقيقية في هذه البلاد هي إننا قد ابتعدنا عن ديننا... انظر إلى العري في التلفاز، وفي الشارع..."

يقاطعه مهاب بحدة:

"أي بعد عن الدين هذا يا فضيلة الشيخ؟ ألا يكفيك ذلك المهرج الذي يحكمنا منذ أكثر من عشر سنوات، ويصدعنا ليلًا

ونهارًا بمواعظه الدينية في كل خطبة؟ أم شهر رمـــضان الـــذي نستعد له قبل قدومه بشهر، ونحتفل به لمدة أسبوعين آخـــرين بعد نهايته؟ إننا لو تدينا أكثر من ذلك سننفجر."

يثور عصام على هذا التعليق:

" أمثالك من العلمانيين والكفرة هم الذين قادونا إلى ما نحن عليه... أفكاركم الهدامة التي تملؤون بها رؤوس الشباب هـــي التي أهلكتنا. لم يعد هناك ورع... الفجـــور صـــار في كـــل مكان."

يتدخل سليمان بنبرة صوته الغليظة:

"بل مشكلتنا هي أن الأخلاق قد ضاعت."

ينفجر مهاب ضاحكًا. يسأله سليمان بحدة:

" علام تضحك أيها الأبله؟"

يرد مهاب ومازال يضحك:

"- لأني لم أر في حياتي لصًا يتحدث عن الأخلاق.

- لص؟ أي لص هذا الذي تتحدث عنه؟ ومن منـــا لـــيس لصًا؟ ذلك الرجل الذي استوليت على سيارته، كان قد حصل على قرض بأربعة مليون منذ عشرة ســـنوات، و لم يـــسدد أي جزء منه... لكن أحدًا لم يقترب منه؛ لأنه قام بـــدفع نـــصف المبلغ للمدعي العام. أما أنا، فلقد قبضوا علـــي، لأني لـــست سوى لص شريف."

في حوالي الساعة السادسة مساءً من اليوم التالي يأتي حارس العنبر؛ ليخبر إبراهيم أن لديه زيارة. يصطحبه مكبل اليدين إلى غرفة صغيرة بجوار مدخل العنبر؛ ليجد شقيقته مـــروة تقـــف بالملابس السوداء. يفك الجندي الكلابشات، ويغلق الباب وهو يقول بصوت عال ونبرة روتينية:

" بعد ساعة سآتي لأفتح الباب."

ما أن يمضي الحارس حتى يرتمي إبراهيم في أحضان مـــروة، وتنزلق الدموع مرة أخرى من عينيه. يظل يبكي ويبكي، يشعر إنه قد عاد طفلًا مرة أخرى، يقترب من جسدها أكثر حـــتى تكاد تلسعه أنفاسها. تبتعد مروة قليلًا، وتمسح على خده برفق، وهي تقول بصوت خافت:

" طلب أولادك أن يأتوا معي ليطمئنوا عليك، لكني أشفقت عليهم... فحالتهم النفسية لا تسمح."

يومئ إبراهيم برأسه متفهمًا. تفتح مروة حقيبتها وتخـــرج منها جريدة مطوية بعناية. تناولها إلى إبراهيم وهـــي تحـــاول الابتسام:

" اقرأ... لقد أصبحت بطلًا." يقرأ رأس الخـــبر: " قتلـــوا زوجته ثم سجنوه!" ثم بخط أصغر: " سيدة مـــصابة بالقلـــب، تموت بسبب مرور موكب رضوان، والشرطة تعتقل زوجهـــا بسبب المشاجرة مع الضباط." يبدأ في قراءة المقال، صـــحفي كان موجودًا في لحظة الواقعة، يحكيها بضمير المتكلم،يجد المقال

طويلًا فيخشى أن يضيّع وقت الزيارة القصير في قراءته. يعيــد الجريدة إلى مروة وهو يقول:

"إنها المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها جريدة تتحدث عن موكب رضوان أو حرس..."

تقاطعه مروة:

"إنك لم تقرأ إلى النهاية... إنهم يدعون إلى مظاهرة بعد غد للإفراج عنك."

* * *

يدخل إبراهيم إلى زنزانته شارد الذهن، يلقي إليه الحــارس بدعابة سخيفة، فلا يسمعها، ولا يبالي حتى بالضحك مجاملــة. لا يكاد يلحظ سليمان الذي كان جالسًا يقرأ في ركن الزنزانة، لولا أنه يمشي فوق قدمه فيمطره هذا الأخير بسيل من الشتائم.

يتجه إبراهيم إلى ركن آخر في الزنزانة، فيتخذه مجلسًا محاولًا تجميع أفكاره. نعم، لا شك أنه كان ضحية لظلم بيِّن... لكن هل هو أول من يتعرض للظلم في هذا البلد حتى يتحرك مـــن أجله الصحفيون والنشطاء بهذا الشكل؟ لقد أصبحت فــضائح الفساد الكبرى تكتب بالخط الصغير في ركن الصفحة، نقرأها مع كوب الشاي اليومي... ربما اعتبره هؤلاء رمزًا للــصمود؛ بسبب ثورته على الضباط. نعم، إنه يذكر الآن – في غمــار ثورته، وقبل أن يفقد الــوعي مباشـــرة: يـــذكر التعــاطف والإعجاب في أعين الناس، وهم يتابعونه بقلــق مـــن نوافــذ

سياراقم. ثم لا... لم يكن في وعيه حينئذ ليحكم على نظرات الناس أو حتى ليلحظها، لعل تواكب الأحداث هو الذي أوحى له بذلك. آه لو يعرف هؤلاء الناس أن ذلك الشخص الـــذي يثورون من أجله ليس إلا موظفًا يعيش على المـــال القـــذر في درج مكتبه مثل آلاف الموظفين... كم ستكون خيبة الأمـــل لكل من سوف يضربوا، ويسجنوا، ويسحلوا مـــن أجلـــه في المظاهرة! سيكون مثل آلاف من الأبطال الذين تحكي الأساطير عن صولاقم وجولاقم، ثم يكشف المؤرخون عن حقيقتـــهم. ولكن لماذا لا يكون لقصته مخرج آخر؟ لماذا لا يكـــون مثـــل أبطال الأساطير الذين يخوضون الحروب، ويصنعون المعجزات من أجل حبيباقم... فلقد أحب زوجته مثلما لم يفعل أحد... بل إنه كان يمد يده ويبتلع كرامته من أجلها... وثار، وسجن من أجلها...

لكن كل ذلك أمر... وثورة مثل هذا الشعب شيء آخر... إنه لا يكاد يتخيل هؤلاء الناس النيـــام الـــذين يتكدســـون في الأوتوبيس العام بملابسهم البالية، ورائحتهم النفاذة... لا يكاد يتخيلهم يتظاهرون من أجل رغيـــف الخبـــز، حـــتى يـــراهم يتظاهرون من أجل رجل محب فقد زوجتـــه... لعلـــها مجـــرد خيالات بعض مثقفي الصحفيين ورجال الأحزاب....

٥

"هل جئت خصيصًا لتحضر لي هذا التقرير؟" يقولها رضوان وهو يرجع بكرسيه إلى الخلف ضاغطًا على زر التكييف بيد، وممسكًا بالتقرير الأمني باليد الأخرى.

" أعلم أن سيادة اللواء أرسل إلى مديرة مكتب سيادتك بنسخة أخرى... لكني لا أخفي عليك قلقي مما جاء بالتقرير... فرأيت أن أعرض عليك الأمر بنفسي قبل أن يصل إليك من مديرة المكتب، حتى يتسنى لي عرض وجهة نظري في الموضوع."

يحيل رضوان نظره إلى التقرير، ثم ما يلبث أن ينفجر في الضحك قائلًا:

" يا له من شعب! يظل صامتًا أكثر من عشرة سنوات، ثم ينظم مظاهرة ضخمة من أجل امرأة ماتت بأزمة قلبية... امرأة واحدة من شعب تعداده أكثر من ثلاثين مليون! يا له من شعب!" يتوقف رضوان عن الضحك حين يرى أن الدكتور عارف لا يشاركه المرح.

" يا سيادة الرئيس، هذه هي المرة الأولى التي تتطاول فيها صحف المعارضة على موكبك... وهي المرة الأولى التي تُنظم فيها مظاهرة من أجل هدف كهذا... وأخشى ألا تكون الأخيرة.

أنت هول من الأمر يا دكتور عارف... الأمر كله لا يتعدى بضعة من النشطاء الاشتراكيين يريدون الظهور على الساحة بأي طريقة... سترى أن أحدًا لن يأت إلى تلك المظاهرة.

للأسف يا سيدي الرئيس، أنا أقل تفاؤلًا منك... أرى أنه من الأفضل اتخاذ كافة الإجراءات الأمنية الممكنة. "

يهز رضوان كتفيه قائلًا:

" وليكن. لن نخسر شيئًا."

* * *

يأخذ رضوان آخر رشفة من فنجان القهوة، ثم يودع ليلى ويغادر صالة الطعام متجهًا إلى مكتبه على الجانب الآخر من القصر. يومئ برأسه بالتحية وهو يمر من أمام باب مديرة المكتب ذي النصف العلوي الزجاجي، فتخرج وتحييه بأدب:

"- صباح الخير يا سيادة الرئيس.

صباح النور.

سيادة اللواء أرسل لنا بتقرير حول مظاهرة الأمس.

أليس لديه شيء يفعله أفضل من متابعة تلك المظاهرة التافهة؟ "

يلتقط رضوان الورقة بشيء من العصبية، ويطويها متجهًا إلى مكتبه. يدخل ويجلس ثم يفتح الورقة على مهل ويقرأها:

" رغم الاحتياطات الأمنية المكثفة، تظاهر نحو ثلاثة آلاف شخص، مما يعتبر عددًا كبيرًا جدًّا بالنسبة لأي مظاهرة تندلع في ميدان عام. كما أن كثيرًا من المتظاهرين لم يكونوا معروفين من قبل من قِبَل الأجهزة الأمنية. كما أصر بعضهم على الاعتصام أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون المواجه لمكان المظاهرة حتى يتم الإفراج عن المواطن الذي تشاجر مع الشرطة."

يطوي رضوان الورقة مرة أخرى، ويغرق في التفكير. ما الذي يأتي بكل هؤلاء الناس إلى مظاهرة بهذه التفاهة؟ شعوب الدنيا كلها تضحي بالألوف المؤلفة من أجل حماية بلادها وحكامها... أما هذا الشعب فيتظاهر من أجل امرأة ماتت بأزمة قلبية في موكب لتأمين رئيس الجمهورية... فإذا كان هناك ثلاثة آلاف شخص يثورون لمثل تلك الأسباب، فهذا في حد ذاته كثير... فما بالك بالأعداد التي لم تأت خوفًا من الأمن. يبدو أنه قد أساء فهم هذا الشعب طوال الأعوام الماضية... طالما قال عنه أنه شعب طيب وقنوع وصبور... لطالما تحمل سنوات من الفقر والبؤس متفهمًا الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تمر بها البلاد. لم يعترض، و لم يثر، و لم يفقد أبدًا ثقته في رئيسه... ماذا حدث له الآن؟ هل أثر عليه هؤلاء المخربين بهذه السهولة؟ يا له من شعب عجيب...

يظل رضوان غارقًا في أفكاره، لا يخرجه منها إلا رنين الهاتف. يأتيه صوت التليفونيست:

" سيدي الرئيس... سيادة اللواء يريد التحدث إليك."

بعد عبارات التحية المعتادة، يسأل اللواء:

"- سيدي، هل قرأت التقرير الذي أرسلته لك هذا الصباح؟

نعم قرأته.

وهل ترى سيادتك أنه من الأفضل الانصياع لمطالب المعتصمين، أم إخراجهم بالعنف؟

هذا الرجل الذي يطالبون بالإفراج عنه أهان رجال الشرطة، ويجب أن يلاقي عقابه. ثم أن كل هؤلاء ليسوا سوى جماعة من مثيري الشغب، يقودون مجموعة من الحمقى. ألقوا القبض عليهم حتى نتخلص من المشاكل ."

يسكت اللواء قليلًا، ثم يقول بلهجة يظهر فيها الحرج:

" سيدي الرئيس... المشكلة أن عدد المعتصمين قد تضاعف من الأمس إلى اليوم... أخشى أن..." يتردد الرجل قليلًا، فيزفر رضوان في ضيق ويقول:

"فليكن... افرجوا عن الرجل. "

يضع رضوان السماعة، ويتنهد الصعداء. يلتقط مجموعة من الأوراق تركتها له مديرة المكتب على جانب من مكتبه الخشبي هذا الصباح. يضعها أمام عينيه، ويبدأ تصفحها بعناية. طلب من وزير الصحة بزيادة ميزانية المستشفيات... يشير الطلب إلى

أن المرضى لا يجدون أسرة وأدوية تكفيهم. يتصفحه الرئيس قليلًا ثم يؤشر عليه بالعرض على وزير المالية. خطاب من محافظ إقليم الجنوب يشكر فيه الرئيس على جهود التنمية، ويطالب فيه بالمزيد من التنمية لاستيعاب باقي العاطلين في الإقليم. يفكر رضوان قليلًا، ثم يؤشر عليه بخط اليد بالمناقشة مع وزير القوى العاملة. طلبات أخرى من وزير التعليم... ينظر الرئيس إلى ساعته: الساعة أصبحت العاشرة، ولن يستطيع أن يتم ما كان ينوي إتمامه من أعمال قبل موعد مأدبة الغذاء مع وزير الدفاع، ورئيس أركان الحرب. آه لو يعلم هؤلاء المخربين كم المصالح التي يهدرونها بعبثهم... لو يعلمون أن مصالح مئات الآلاف من المرضى والعاطلين تعطلت بسبب كل الضجة التي أحدثوها من أجل تلك المرأة. بل لعل هذا هو هدفهم الأسمى من الفوضى والشغب... أن يعطلوا مصالح البد بأكمله. لكن هذا هو قدره... أن يكون رجلًا صالحًا يحكم بلدًا به آلاف من المخربين... لعله ابتلاء من الله سبحانه وتعالى... لكن هل يكون معنى البلاء غضبًا من الله سبحانه وتعالى؟ يعض رضوان القلم الذي يمسك به بين كفيه. يبدو له الأمر مرعبًا حقًا...لكنه يذكر أن شيخ الجامع قد أخبره بحديث – يذكر فحواه ولا يذكر لفظه – أن الله لا يبتلي إلا عباده المؤمنين... نعم إنه ابتلاء لإيمانه... فليصبر وليستعن بالله... يستمر رضوان قليلًا في عض القلم، ثم يضعه على المكتب، ويتابع قراءة التقارير.

بعد يوم شاق، يعود رضوان منهكًا إلى جناح السكن في حوالي الساعة السابعة. يدخل من باب المدخل عبر الطرقة الرئيسية مباشرة إلى غرفة المعيشة. يفتح زر الياقة، ويفك رابطة العنق، ثم يرتمي على أول مقعد يقابله. يلقي برأسه إلى الخلف، حتى لا يقابل نظره إلا النجفة الهائلة المعلقة في السقف... يحاول جاهدًا أن يتأمل ألوانها البراقة؛ ليمنع نفسه من الانشغال بأي أفكار سلبية قد ترهق ذهنه.

تمر عليه عشرة دقائق من الصفاء الكامل، ثم ينتبه إلى صوت ليلى وهي تدخل من باب الجناح... تمر ليلى من الطرقة أمام غرفة المعيشة، فتتبادل التحية مع زوجها من بعيد، ثم تمضي ليلى إلى مكتبها، إلا أن رضوان يستوقفها بصوت عالٍ:

" ليلى، أريد أن أسألك شيئًا."

تقف ليلى منتظرة، فيقوم رضوان بثقل، ويقترب منها، ثم يقول بصوت مكسور:

" هل أنا رئيس صالح؟ "

تنظر إليه ليلى في شيء من الدهشة.

"- لماذا تنظرين إليّ بهذه الطريقة؟

لأنها المرة الأولى منذ إثنى عشر عامًا، التي تسألني فيها هذا السؤال."

تسكت ليلى قليلًا، وتميل بنظرها عن رضوان؛ لتفكر بعمق، ثم تقول:

"لا أعرف... لا يمكنني تقييم اثني عشر عامًا في لحظة واحدة."

* * *

يرتدي رضوان "الروب دي شامبر" ويتجه إلى الحمام؛ ليستمتع بدش ساخن. حاول في اليومين الماضيين أن يمضي عطلة نهاية أسبوع هادئة، بعيدًا عن المقابلات، والمآدب الفاخمة، والسفسطة الرسمية التي لا طائل منها مع السفراء والوزراء. تمشى في حديقة القصر لمدة ثلاث ساعات، وشاهد حلقتين من أحد مسلسلات الدراما الاجتماعية مع كوب من المياه الغازية، وبعض الحلويات. كما قضى وقتًا ممتعًا في لعب الطاولة مع ابنه عامر، الذي جاء لزيارته. اليوم الأحد يكون قد مر ثلاثة أيام على قيام تلك المظاهرة السخيفة. كم يتمنى أن يدخل إلى مكتبه فلا يجد تقريرًا آخر عن ذات الموضوع...

ينتهي من الاستحمام، ويمضي إلى المكتب وهو يجهد نفسه على التفاؤل. يفتح الباب، فيجد رزمة لا بأس بها من التقارير. يمسكها ويقلبها بتوجس. تقرير من مستشار التعليم عن مشكلة نظام الابتدائية الجديد... وتقرير من المستشار القانوني عن عقود امتياز الغاز الطبيعي... وآخر من مستشار الطاقة... ويا للعنة! ها هو تقرير من المستشار الأمني... لكنه هذه المرة

يتحدث عن مشكلة جديدة: فالمساجين في سجن العاصـــمة، قرروا الإضراب عن الطعام بسبب "ما يدعونه من سوء المعاملة والتعذيب"... ما يدعونه من سوء معاملة والتعذيب ؟ يـــشعر رضوان بوخز ضميره، فربما يكون الأمر صـــحيحًا. يمـــسك بالهاتف الداخلي ويتصل بالسكرتارية ويقول بلهجة حازمة:

" اتصلي بوزير الداخلية. "

لا تمضي ثوان حتى يصله صوت الوزير على الهاتف:

"- أهلًا بسيدي الرئيس! كيف حال سيادتك؟

اسمع يا سيادة اللواء، ليس لدي وقت أضيعه... أريـــدك في أمر مهم.

أنا رهن إشارتك يا سيدي الرئيس. ماذا بوسعي أن أقدمـــه لك؟

ما قصة المساجين الذين أضربوا عن الطعام؟ "

يتلعثم الوزير قليلًا:

" إنها مجرد مناورات يقومون بها ليتم الإفراج عنهم... أعني أنهم يتذرعون بسوء الـــ..." يقاطعه رضوان بحدة:

"- أنهم يقولون أنهم محتجزون بأعداد كبيرة في زنزانـــات ضيقة، ولا يتلقون أي رعاية صحية، ويتعرضـــون للـــضرب والصعق بالكهرباء." يتلعثم صوت الوزير أكثر:

في بعض الأحيان نحتاج للضغط عليهم للحصول على بعض المعلومات، و...

هذا ليس مبررًا كافيًا. هناك طرق أخرى للحصول على المعلومات. "

يسكت الوزير قليلًا فيما يبدو أنه يستجمع شجاعته، ثم يقول:

" لكن سيادتك قد وافقت على استخدام تلك الوسائل للضرورة يا سيادة الرئيس."

ينفجر رضوان غاضبًا:

" أنا؟! "

يرد الوزير الذي يبدو أنه قد تملكته جرأة نادرة في مواجهة رئيسه الغاضب:

"- أعني أنك قد وافقت ضمنيًّا يا سيدي الرئيس... ألا تذكر حين أرسلت منظمة حقوق الإنسان تقريرًا إلى سيادتك عن معاملة السجناء... فأرسلت أنا بعدها رسالة فاكس؛ لأشرح لك الضرورات التي تدفعنا لتلك المعاملة؟ و لم تعقب سيادتك على ذلك... ألم يكن ذلك موافقة على أسلوبنا في الحصول على المعلومات عند الضرورة؟

متى حدث كل ذلك؟! أرجوك لا تختلق القصص لتتملص من المسؤولية.

لكن... "

يثور رضوان ثورة عارمة:

" مادمت أقول لك أنه لم يحدث، فهو لم يحدث. انتهى الموضوع . مع السلامة! " يضع رضوان السماعة، وهو يستشيط غضبًا... ذلك الوزير الوقح الذي يؤدي عمله بغير ضمير، كيف تصل به الجرأة إلى اتهامه شخصيًّا بالمسؤولية عن تعذيب السجناء، وهو من أرسى قواعد الديمقراطية والحرية في هذه البلاد؟!

تمر حوالي خمس دقائق قبل أن يستعيد رضوان نسبيًّا هدوءه. يتذكر بعدها شيئًا ما... تمتد يده إلى الدرج الثاني من المكتب... ذلك الدرج الذي يضع فيه الأوراق المزعجة جانبًا. يفتحه، ويقلب الأوراق... بعض الأجزاء المقصوصة من الجرائد، وبعض التقارير القديمة... وفي قاع الدرج يجد ورقتين مدبستين: تقريرًا من منظمة حقوق الإنسان... وفاكسًا من وزير الداخلية.

* * *

توالت الأزمات تباعًا على رأس رضوان في الأيام السابقة، وكأن ثمة عش دبابير ظل مغلقًا طوال سنوات طويلة، ثم فُتح فجأة... حيث انضم باقي المساجين في سجن العاصمة إلى زملائهم المضربين عن الطعام منذ أسبوعين... كما أضرب مدرسو الابتدائي في المدارس الحكومية عن العمل منذ بضعة أيام؛ بسبب حرمانهم من بدلات التنقل... واعتصم عمال السكة الحديد أمام القضبان بسبب المحسوبية التي أتت بأسوأ من

فيهم إلى مواقع القيادة... وتظاهر آلاف من طلبة الجامعة مستصرخين خوفًا من شبح البطالة الذي بدأ يدق عليهم الباب... حتى أن رضوان لم يعد يتساءل عن أسباب كل أزمة، بل يفكر في حل سريع للخلاص منها قبل أن تبدأ أزمة جديدة. استخدم كل الوسائل: فتارة يخرج الورقة والقلم ليوقع على موافقته على بعض مطالب المتظاهرين، وهو يلعن اليوم الذي تولى فيه رئاسة هذا البلد... وتارة أخرى يتصل بوزير الداخلية، ويأمره "بالتصرف" مع المتمردين... ومرة ثالثة يستعين بوزير المالية؛ لكي يعد الجماهير الغاضبة بالذهب والفضة إذا ما صبرت...

قضى رضوان الأسبوع الماضي ليلة، يكاد يجزم أنها الأسوأ في حياته. كان حلمًا طويلًا ثقيلًا... ظل عالقًا في ذاكرة رضوان بكل تفاصيله على غير العادة... كان يمشي بخطوته المعتادة في طريق واسع مفروش بسجاد أحمر، يحيط به من الجانبين عساكر التشريفة. وفجأة وجد نفسه يسقط من حفرة في الطريق، ليجد نفسه داخل قبو مظلم... انقض عليه عدد هائل من الناس خرجوا لتوهم من الظلام، يرتدون جميعًا ثياب رثة وتبرق عيونهم بنظرة ذئاب جائعة، حتى لا يكاد يرى غيرها في الظلام الدامس. انهالوا عليه بالضرب، وهم يقهقهون من اللذة... استغاث بالحرس فلم يجبه أحد... صرخ فيهم: " ألا تعرفون من أنا؟ أنا رئيس الجمهورية أيها الجهلة!" ابتسم أحدهم ابتسامة عريضة كشفت عن أنياب مخيفة، ورد عليه

بلهجة تهكمية: "رئيس ساااااابق!" ثم استمر في الضرب... ترنح رضوان يمينًا ويسارًا من أثر اللكمات والركلات المتلاحقة، فلم ينقذه من الضرب إلا يد ليلى التي خبطت على كتفه، وهي تقول بصوت خافت: " ماذا بك يا جلال؟ لماذا تتحرك بهذا الشكل الهستيري؟"

استيقظ رضوان من النوم والكابوس ما زال يعشش في رأسه. ذهب إلى الحمام، وغسل وجهه، وهز رأسه تحت المياه الباردة، إلا أن الكابوس كان أقوى وأشرس من أن يرحل. خلع البيجاما، وارتدى البنطلون والقميص، وجلس على حافة السرير، يرتدي الجورب. ترى ماذا يحدث له لو ثار هذا الشعب؟ بالطبع لن يستطيع؛ فالشرطة ستقمعه... لكن ماذا يحدث لو ثارت الشرطة؟ سيقمعها الجيش... لكن ماذا لو أن الجيش قرر أن ينضم إلى الشعب والشرطة؟ سيجد رضوان نفسه وحيدًا باستثناء ليلى، وعامر، والدكتور عارف... هذا بفرض أنهم سيبقون معه... سيمزقه الناس أشلاءً... أو ربما يصلبونه ويتركونه حتى يموت من الألم والعطش والحسرة... ربما يحاكمونه محاكمة شكلية، وربما يحبسونه لبعض الوقت قبل إعدامه، ولكن المؤكد أنهم سيقتلونه في النهاية... يرتدي الحذاء، ويخرج أول رابطة عنق يجدها أمامه في الدولاب. يضع السترة على كتفه، ويفتح الباب، ويجر قدميه إلى المكتب.

يقع جامع سيدي القاسم في شارع موازٍ للشارع الذي يقع فيه قصر الرئاسة. ومنذ انتقل رضوان إلى القصر، وهو يذهب

إليه بصفة مستمرة لأداء صلاة الجمعة وصلاة العيدين، بالإضافة إلى صلاة التراويح في بعض الأحيان. وعلى الرغم من حجم القصر الذي يسمح بسهولة لأن يبنى بداخله مسجد مخصص للرئيس وحاشيته، إلا أن رضوان رفض ذلك بشدة؛ لأنه يؤمن بأن الجامع هو دار الله، ويجب أن يكون مفتوحًا لكل عباده... حتى صار جامع سيدي القاسم هو المكان الوحيد الذي يمكن للجمهور رؤية رضوان فيه وجهًا لوجه (وإن تقلص عدد زوار الجامع بشكل كبير نتيجة للإجراءات الأمنية التي يتعرضون لها عند الدخول) .

ولم تكن علاقة رضوان بالمسجد تنتهي مع ركعة التحيات، بل كان يبقى بعد ذلك لمدة ساعة أو يزيد مع إمام المسجد الشيخ الصاوي. كان الشيخ ينعم لدى الرئيس بثقة منقطعة النظير، فكان يناقشه ويستفتيه في كل أمور الدين والدنيا... كان يسأله في طريقة أداءه للركوع والسجود، وفي أجر صيام الستة البيض، بل وفي حقه الشرعي على زوجته. إلا أنه في بعض الأحيان كان يتطرق لأمور متصلة بمهامه الرئاسية، فيسأله عن تقنين فوائد البنوك، أو عن أوامر الاعتقال، أو عن بعض الوسائل التي يستخدمها في الانتخابات منعًا لوصول جماعة "نور الهدى " المتطرفة إلى الحكم... (كان صراعه مع تلك الجماعة الإسلامية المتدينة يرهق ضميره بشكل خاص). حذره الدكتور عارف أكثر من مرة من مغبة الثقة المفرطة بالشيخ، ومن أن أعداءه قد يستغلون ذلك من أجل الحصول على

معلومات قيمة عنه،وعن حياته الشخصية،بل وعن أسراره السياسية. إلا أن رضوان لم يأبه بتلك التحذيرات، فنداء الدين كان أعلى عنده من أي نداء آخر. وبعد فترة - ولارتياح الدكتور عارف - عزف رضوان تمامًا عن تلك المقابلات الودية. والواقع أن هذا العزوف لم يكن استجابة لإلحاح الدكتور عارف، بل لأن إجابات الشيخ لم تكن تتغير كثيرًا... فكلما أفضى إليه رضوان بأمر يؤرق ضميره، قال له الشيخ: "بارك الله فيك يا سيدي الرئيس... كم يعلم الله إنك رجل مخلص لوطنك ولشعبك... إن ضميرك المرهف هو الذي يجعلك تتألم بلا سبب." وأحيانًا يضيف الشيخ شيئًا من قبيل: " أبقاك الله زخرًا للأمة الإسلامية." أو "يا ليت كل حكام المسلمين في مثل صلاحك وحكمتك يا سيادة الرئيس." حتى أن رضوان لم يعد يشعر بجدوى هذه الجلسات، رغم ما كانت تدخله عليه من بهجة وارتياح...

إلا أن علاقة رضوان بالشيخ الصاوي لم تتوقف عند هذا الحد. بل أن الشيخ الصاوي كان دائمًا ما يحرص على الاتصال بالرئيس في شتى المناسبات... كان الحديث غالبًا لا يتعدى إطار التهنئة والمجاملات المتبادلة، أو بعض الدعابات البسيطة، إلا أنها كانت كافية لتحافظ على قوة الرابطة بين الرجلين..

لذلك، فإن السكرتيرة حين تخبر رضوان بأن الشيخ الصاوي على الهاتف، فإنه يسارع بالرد عليه (على الرغم من أنه دائمًا

ما يرفض الرد على المكالمات غير الرسمية؛ بحجة الانــشغال في العمل) . يتبادلان التحية المعتادة ثم يسأله الشيخ الصاوي:

"- لماذا لم نرك بالمسجد في صلاة الجمعة يا سيدي الرئيس؟ لقد خفت أن تكون مرهقًا، أو مريضًا لا قدر الله.

لا لست مريضًا،والحمد لله... لكني... لم أشعر برغبـــة في الذهاب إلى الجامع."

تسود لحظة صمت... يقدر رضوان أن الرجل لا بد وأنـــه قد أصيب بالذهول، فكيف تخرج كلمة مثل هذه من رجل لم تفته فريضة واحدة في حياته. يشعر رضوان برغبة عارمة في أن يفرغ ما بداخله... فالشيخ الصاوي هو الشخص الوحيد الذي يبوح له بأسراره الدفينة دون خوف.

" أخشى أني لم أعد لائقًا بالمسجد يا سيدنا الشيخ."

يأتيه صوت الشيخ الصاوي كمن سمع كفرًا:

"- كيف تقول ذلك؟ أنت من رفعت شأن بيـــوت الله في هذا البلد... لا تقل ذلك أبدًا يا سيادة الرئيس! "

يقول رضوان كما لو أنه لم يكن قد سمع الجملة الأخيرة:

"- يبدو أني فرطت في حق شعبي أكثر من اللازم.

ولنفرض إنك قد أخطأت مرة يا سيدي الرئيس... وهـــذا وارد لنا جميعًا فـــ ''كل ابن آدم خطـــاء، وخـــير الخطـــائين التوابون" كما يقول رسولنا الكريم... ودعني أقول لك كمـــا

يقول الإخوة المسيحيون: تذكر دائمًا فرحة الراعي الصالح بعودة الخروف الضال."

يتنهد رضوان بعمق ثم يقول:

" لكني لم أكتشف إني الخروف الضال إلا بعد أن صار الراعي خارج مرمى البصر."

* * *

تستمر الفوضى طويلًا، وكل إضراب يعقبه عشرات الإضرابات، وقائمة الطلبة المشاغبين تزداد طولًا يومًا بعد يوم.

يظل رضوان متماسكًا، يستمع للدكتور عارف حينًا، وللمستشار الأمني حينًا، ويعطي التعليمات لوزير الداخلية حينًا آخر...

يظل متماسكًا حتى ذلك اليوم... تضرب مديرة المكتب على الباب برفق، فيرفع رضوان رأسه ليجدها تدخل عليه وفي يدها كلاسير شفاف به ورقة مطبوعة. يشاور لها بيده لتناوله إياه. تقترب منه بخطوات حذرة، فيمد يده في عصبية ويلتقط الكلاسير. يقلب الورقة سريعًا من الغلاف... "مظاهرة"... و"طلبة"... و"شغب"... و"أمن".... تبدو الأمور كلها مألوفة حتى تلتقط عيناه تلك الجملة في آخر سطور التقرير:

"...كما نادت بعض العناصر المشاغبة بسقوط السيد رئيس الجمهورية..."

تمسك مديرة المكتب بمقبض الباب وتهم بالانصراف، فيأتيها صوت الرئيس وهو يتأفف بحدة... تستدير إليه، وهي تتوجس شرًّا... يمزق رضوان الورقة وهو يصيح:

"ماذا يريد هؤلاء مني؟ ماذا يريدون بحق الجحيم؟ "

ثم يعلو صوته أكثر وهو يقول:

" ألا يعرفون من أنا؟ أنا من قهرت "حراس الشعب"! اثنا عشر عامًا حكمت فيها هذه البلاد، لم يرفع أحد فيها صوته! أنا الشيطان بذاته! بل الشيطان لا يملك أن يقوم بما قمت أنا به! ماذا يظن هؤلاء الغوغاء؟ سأسحقهم جميعًا كالصراصير!"
ثم تقفز السكرتيرة المسكينة في مكانها، ورضوان يضرب بقبضته على المكتب كالمجنون..."سأسحقهم جميعًا!!!"

٦

كانت وفاة شمس علامة فارقة في حياة إبراهيم ، فمن موظف مغمور في مصلحة الضرائب، أصبح نجمًا إعلاميًا لامعًا... انتشرت صوره في الجرائد، وتسابقت المجلات في إجراء اللقاءات والحوارات معه. أصبح اسمه مجالًا لفتح الأحاديث على المقاهي، بل أن بعض الناس يستوقفونه في الشارع ليحيوه ويعبروا له عن إعجابهم وتضامنهم. باختصار أصبح إبراهيم رمزًا لروح الثورة التي هبت على البلاد.

حالت ظروفه النفسية في بداية الأمر دون لقائه بالصحفيين... فكان يتذرع مرة بسوء حالته الصحة، ومرة أخرى بضيق الوقت. لكن موقفه تغير بعد بضعة أشهر تحت إلحاح الصحفيين، وإلحاح أبنائه الذين يتمنون رؤية صور أبيهم في المجلات، وإلحاح شقيقته مروة التي تحاول إخراجه من الاكتئاب.

تعرّف إبراهيم من خلال هؤلاء الصحفيين على عالم جديد مليء بالسحر والغموض... عالم الأحداث والأخبار وكشف الأسرار... حيث يختلف كل نهار عن الآخر. ينزل الصحفي من مكتبه لا يعرف ماذا ينتظره... ربما يشهد صفقة مريبة... أو يكشف سر حادثة قتل... أو إضرابًا للعمال... لذلك يكاد يكون عالم الصحافة العالم الوحيد الذي لا يعرف معنى اليأس. فالتغيير هو القاعدة... والثبات ليس إلا مرحلة انتظار.

كانت لهذه الروح أثر معد على إبـــراهيم...فبـــدأ الأمـــل يداعبه في أن يرى ذلك الرجل الذي حرمه من زوجته، وهـــو مطأطئ الرأس... مطرود من القصر الجمهـــوري... تلاحقـــه الجماهير الغاضبة بالسباب والسخرية حـــتى بـــاب النيابـــة... وسيكون هو أول من يذهب للنيابة لاتهامه بالمسؤولية عن مقتل زوجته... سوف يتحدث شخصيًّا لوكيل النيابة دون وســـاطة محام. سوف يحكي ويحكي ويحكي... عن كل ثانية أمضاها في سيارة الإسعاف ينظر في ساعته، يرجو مـــن الله أن تتوقـــف عقاربها لمدة دقائق... وعن الانفجار الصامت الذي هز رأســـه حين توقف صوت تنفس شمس في الجهاز... وعن اللحظـــات التي غاب فيها عن الدنيا والممرضان يحـــاولان إنعاشـــها... ثم سيعود إلى بيته وينتظر حتى يوم المحاكمة... وسيكون له فاصل آخر من المتعة داخل قاعة المحكمة... فسوف يسأل القاضـــي رضوان عن كل التهم الموجهة إليـــه... فـــساد... وظلـــم... وتعذيب... وقهر... ورضوان يرد وهو واقـــف يـــرتعش... وإبراهيم جالس مستهزئًا... وحين تأتي تهمة قتـــل شمـــس... سوف يتوسل إليه أن يسامحه... وسوف يترل علـــى ركبتيـــه، ويقبل قدميه... لكن إبراهيم سيرفض بالطبع... وسوف يشفي غليله حين يرى نظراته المتوسلة، وعينيه الدامعتين لحظة صدور الحكم...

وكلما خلى إلى نفسه في حجرة النوم، وتـــذكر الأوقـــات السعيدة التي قضاها مع شمس في تلك الغرفة، وذكريات العـــام الأول من الزواج، تمنى أن يرى ذلك اليوم.

كان لديه إيمان عميق بأن شمس قد ماتت شهيدة. صـــحيح أنها لم تمت دفاعًا عن الدين، أو دفاعًا عن الوطن... لم تمـــت وهي تحمل سيفًا... لكنها على كل حال شهيدة الظلم والقهر والاستبداد... نعم فلو لم يكن هناك استبداد، لما تمكن أمثـــال هذا الملعون جلال رضوان من تعطيل مصالح الناس وأعمـــالهم ومشاغلهم، بل ومن حرمان إنسان من حياته من أجل المـــرور بموكبه الفخم. نعم، مهما قال الشيوخ، وأفتى العلماء فإن شمس قد ماتت شهيدة.

" أحياء عند ربهم يرزقون"... كلما ذكر إبراهيم تلك الآية شعر في قرارة نفسه أن شمس تطل عليه في مكان ما، بابتسامتها الطاهرة ذاتها التي عهدها منذ كانت طالبة بالكليـــة... وأنـــه سوف يراها يومًا ما حين ينتصر على هؤلاء الذين نفوها عـــن الدنيا... يومئذ سوف تظهر له، ربما تحادثه، وربما تقبله علـــى جبينه، وربما تهدي لأذنيه تلك الضحكة التي مـــازال صـــداها يتردد له بين الحين والحين...

* * *

كان إبراهيم يستقل الأوتوبيس في طريق عودته من العمل، حين رأى مظاهرة حاشدة في الطريق... بدا واضحًا من اللحى

والسبح التي تتدلى من الأيدي والجلابيب البيضاء التي يرتـــديها المتظاهرون أنهم منتمون إلى جماعة "نـــور الهـــدى". ذكرتـــه المصاحف المرفوعة عاليًا بالآية الكريمة: "...أحياء عنـــد ربهـــم يرزقون"...

وجد إبراهيم أن الفرصة ذهبية لكـــي يحقـــق حلمـــه... ويكافح سعيًا وراء وجه شمس المشرق. انتظر حتى أول تقـــاطع طرق، وألقى بعملة معدنية في يد الكمسري، وقفز إلى الأرض قبل أن يحصل على تذكرة.

كانت أعداد حاشدة من البشر تتحرك وتهتـــف، تحيطهـــا أعداد أكبر من رجال الشرطة المتسلحين بكافة أنواع البنـــادق والهراوات. نجح إبراهيم بصعوبة في التسلل من خـــلال تلـــك الجحافل إلى قلب المظاهرة... لكن بدلًا من أي يـــرى وجـــه شمس، رأى لافتات كبيرة تحمل صورًا لبعض المشايخ ممن يجهل أسماءهم، بلحى بيضاء متشعثة. ردد إبراهيم خلف المتظاهرين:

"حسبي الله ونعم الوكيل!"

" الله أكبر الله أكبر!"

" إسلامية إسلامية!"

كانت اللافتات تحمل عبارات مثل:

" يا أولي الأمر أوقفوا العري في التلفزيون!"

" أوقفوا بيع الخمور للسياح!"

"اغلقوا الكباريهات أو حطموها!"

" الخمار يستر عورتك يا أختي المؤمنة"

"تبرعوا لبناء المساجد خيرًا من إنفاق أموالكم في بضائع بلاد الكفار"

انقضت المظاهرة بعد ساعة دون أن يُذكر اسم "رضوان" مرة واحدة. لكن أكثر ما أدهش إبراهيم هي تلك البلادة التي يواجه بها رجال الشرطة المظاهرة، وكأهم يتابعون مسرحية هزلية... بل أن نظرات بعضهم كانت تحمل شيئًا من السخرية والاستهزاء.

ذهب إبراهيم إلى محطة الأوتوبيس مفكرًا... كان يظن وجه شمس أسمى من أن يظهر على هتافات مكافحة العري في التليفزيون، وبيع الخمور للسياح...

* * *

بعد حوالي أسبوع يتلقى إبراهيم مكالمة تليفونية من صوت مجهول.

" ألا تعرفني؟ فكر قليلًا يا رجل... أنا زميل الكفاح! هاهاها! ألا تعفرني؟ أنا مهاب!

مهاااااااب! اعذرني يا فتى، فلم أكن أتوقع ذلك... كفارة يا رجل! متى تم الإفراج عنك؟

بالأمس! يبدو أن حالة الهياج العام التي أصـــابت الـــبلاد، جعلت جمعيات حقوق الإنسان تتذكرنا... والحكومة اضطرت أن ترضخ لضغوطها خوفًا من الفضيحة، فسيرتها أصبحت على كل لسان. مازلت لا أصدق إني خارج الأسوار... أمي كـــاد يغشى عليها... وغرفتي حولوها إلى بدروم! تخيل!

لا بد أنه شعور رائع.

رائع ومرعب في آن واحد يا إبراهيم... مواضـــيع يطـــول شرحها... ما رأيك في فنجان قهوة نشربه سويًّا؟"

يتفق الصديقان على ميعاد في نهاية الأسبوع؛ لشرب فنجان القهوة.

تقابل الصديقان في الموعد. يلاحظ إبراهيم أن وجه مهاب قد امتلأ قليلًا عما كان عليه في السجن. " كميـــة الـــبقلاوة والكنافة التي اشترتها أمي احتفالًا بعودتي كانت كفيلة بأن ترد إلي في يومين ما خسرته من وزن في عشرة سنوات. "

يضحك الصديقان، ويتكلم مهاب عن ذهوله مـــن الحيـــاة المدنية التي انقطع عنها طوال هذه المدة: ضوضاء، وســـيارات، وأشجار، ونساء... يتحدث عن خوفه ألا يجد عملًا بعد كـــل هذه الأعوام التي قضاها في البطالة. يحاول إبراهيم أن يطمئنـــه بأن "لكل مجتهد نصيب" وأن من ضحى بسنوات من عمره في الكفاح لا يمكن إلا أن يعوضه الله خيرًا. ثم يسأله مهاب عـــن أحواله، فيحكي له عن تلك النزعة الثورية التي اجتاحت قلبـــه

وعقله، وعن مظاهرة جماعة " نور الهـــدى" الـــتي لم تـــرض طموحه. ينظر إليه مهاب كالمصعوق:

" مالك ومال هذه الجماعة الإرهابية؟ " يحاول إبـــراهيم أن يشرح لمهاب أنه لا ينوي الانتماء للجماعة، لكن ثورة مهاب أقوى من أن يتمكن إبراهيم من مقاطعته.

" جماعة من المنافقين والسفلة! يرفعون المـــصحف في يـــد (يرفع مهاب كفه الأيمن إلى أعلى) ويوقعون باليـــد الأخـــرى على صفقات مع الحكومة! إياك يا إبراهيم إياك !"

يشرح له إبراهيم ما كان يبغيه من المظاهرة، ورغبته الملحة في رؤية وجه شمس. يهدأ مهاب قليلًا، ويشرب من فنجانه، ثم يقول:

" إذا كنت تريد أن تشارك في عمل ثوري فعـــال، فتعـــال معي يوم الخميس بعد المقبل أمام وزارة الداخلية. هناك مظاهرة للإفراج عن باقي المعتقلين... سيشارك فيها عدد من النـــشطاء اليساريين، وعدد من الليبراليين أيضًا..."

ينظر إليه إبراهيم بتعجب:

"- ألا تخش أن يقبض عليك، وتمضي عشر أعوام أخرى في المعتقل؟

بصراحة كنت لا أنوي الذهاب... لكني مستعد أن أذهب معك خصيصًا." ثم يضحك قائلًا: " لكي أهـــديك للطريـــق

المستقيم!" يضحك إبراهيم معه. يرفع مهاب فنجان القهوة إلى شفتيه، ويقول وهو يرمق إبرهيم بنظرة جانبية:

"إلا جماعة "نور الهدي" ! "

يتساءل إبراهيم في سره: ترى هل يمكن أن يسري وجه زوجته الشهيدة على أيدي هذه الجماعة من اليساريين العلمانيين؟ لكنه يذكر فرحتها الغامرة وهي تشاهد الكريملين، وباليه بحيرة البجع في روسيا الشيوعية، فيقتنع قليلًا... ربما كان هؤلاء العلمانيين في واقعهم أقرب إلى الله من تلك الجماعة التي تصب لعناتها على رواد الكباريهات أكثر مما تصبها على أباطرة الفساد...

يسأل مهاب بنفاذ صبر:

" هه؟ هل نتقابل يوم الخميس؟

فيلكن...."

يتقابل الصديقان يوم الخميس أمام محل ملابس في شارع جانبي اتفقا عليه مسبقًا، يبعد عن ميدان وزارة الداخلية بحوالي مائتي متر. ينجح مهاب بخبرته في التسلل عبر جحافل الأمن إلى ميدان المظاهرة ممسكًا بيد إبراهيم كأنه يقتاد طفلاً.

يدخل الصديقان في قلب الزحام... مجموعة من الشباب والرجال والنساء ما بين العشرين والخمسين، يبدو من ملابسهم أنهم عمال أو من صغار الموظفين... وبعض الطلبة الذين

يرفعون صورًا لجيفارا... يلعنون رجال الأعمال بصوت عال، ويسبون حاشية رضوان الفاسدة بألفاظ نابية، وأصابعهم تلوح بإشارات جنسية... يضحك ابراهيم في سره إذ تخيل شمس وهي تظهر بوجهها النوراني في وسط هذا الصخب. ربما كان العنصر الوحيد الذي لم يتغير عن مظاهرة "نور الهدى" هو رجال الشرطة بهراواتهم، وبنادقهم، ونظراتهم الهازئة.

في نهاية المظاهرة يلقي إبراهيم نظرة على مظاهرة الليبراليين المجاورة التي مازالت قائمة... عدد من الرجال والسيدات في منتصف العمر يرتدون البدل و"التييرات" الأنيقة، ويحملون لافتات فاخرة تدعوا إلى احترام الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والحقوق الدستورية للمواطنين. ويحيطهم رجال الشرطة من ذات العينة الساخرة... يستدير إبراهيم، ويغادر الميدان في صحبة مهاب، وهو يفكر: " أحياء عند ربهم يرزقون.".

* * *

يبدو أن أنفاس الثورة لم تهب على البلاد وحدها، فقد كان التلفزيون والراديو ينقلان يوميًّا أخبارًا من روسيا الاتحادية... حيث استقال رئيس البرلمان – بوريس يلستن – من الحزب الشيوعي احتجاجًا على تلكؤ جورباتشوف في الإصلاحات السياسة. انتشرت المظاهرات في كل أقطار الاتحاد

السوفييتي كالنار في الهشيم... ومع ازدياد المظاهرات بهذه السرعة، لم تمض بضعة أشهر حتى اضطر جورباتشوف لإعلان روسيا جمهورية اتحادية بداخل الاتحاد السوفييتي. أجريت انتخابات لاختيار رئيس للجمهورية الوليدة تحت الأعين المترقبة في كل أرجاء العالم، ففاز بها يلستن باكتساح. قام جورباتشوف بعد ذلك بتوقيع معاهدة مع بعض جمهوريات الاتحاد حصلوا بمقتضاها على جرعة إضافية من الاستقلال... قامت على إثرها محاولة انقلاب من بعض قيادات الحزب الشيوعي الغاضبة، فتصدى لها يلستن بنجاح مبهر بعد أن استجاب عشرات الملايين من الروس، ومن سكان الجمهوريات الاتحادية لدعوته بإعلان الإضراب الشامل.

كان إبراهيم يقرأ أخبار الانتفاضة الروسية صباحًا في الجرائد، ثم حين يصل إلى المصلحة يتوسل إلى رضا أن يقتطع دقائق من أخبار الدوري المحلي حتى يتابع تطورات الانتفاضة... وحين يعود إلى بيته عصرًا يفتح التليفزيون ليملأ عينيه بمشاهد الثورة. أصبح مسار سخرية الزملاء بعد أن قالوا عنه أنه أصبح يعيش في موسكو أكثر مما يعيش معهم في مصلحة الضرائب... وربما لم يكن زملاؤه مخطئين.

حيث كانت تتراءى في ذهنه في كل دقيقة عشرات من الصور... صورة المرشد السياحي الذي قادهم في ساحات الكريملين، ووجهه المقطب لا يخفي زهوًا بما صنعته أيدي أجداده... وصورة سائق الحافلة... وباعة الكروت، والهدايا

التذكارية في مدينة "سرانسك "، وهم يعرضون منتجاتهم بابتسامة هادئة واثقة كأنهم يقدمون قطعًا من الجواهر... تلك الابتسامة الحزينة التي ترتسم على وجه عشرات من الروس، ومن سكان البلدان المجاورة الذين تعامل معهم... ذلك الجمال الهادئ الذي تنطق به حدائق الكريملين ومحطات المترو... تخيل تلك البلاد الغامضة تنتفض وتثور على وقع خطوات راقصات البولشوي، وتحول الحزن الكامن في ابتسامتها إلى سهام مشتعلة من الغضب، تطلقها على صدور قيادات الحزب الشيوعي، فتحرقهم جميعًا... وتحطم قيودًا كبلتها أكثر من سبعين عامًا.

* * *

"لن يتغير شيء في هذا البلد. " يقولها كمال بثقة وهو يرجع بظهره على الكرسي الخشبي العتيق، ويسكت برهة ليرى وقع الجملة على مستمعيه، ثم يستطرد:

" لا شيء في هذا البلد يجري دون مباركة الحكومة... بما في ذلك المظاهرات والإضرابات. أراهنكم أن رضوان يجلس الآن مسترخيًا في مكتبه المكيف، وهو يخرج لسانه للشعب. لا بد أن له مصلحة في كل كل يجري. "

يومئ يوسف برأسه موافقًا:

" الحكومة هي التي تحرك الإضرابات العمالية؛ لتتخلص من بعض رجال الأعمال المناهضين لها. ما أن يعلن هؤلاء إفلاسهم حتى تنتهي كل هذه الفوضى كما بدأت."

. يقول رضا، وقد خفض من صوت الراديو ليشترك في الحديث:

" بل هي التي تحرك مظاهرات "نور الهدى" لتظهر إنها تحترم الدين والحركات الدينية... رغم أنها في الواقع دولة كافرة لا تعرف ديناً ولا رحمة. "

انظروا إلى روسيا. قامت المظاهرات ضد النظام منذ عام ونصف فقط، والآن جورباتشوف استقال... ولا أحد يعلم ماذا سيحدث بعد ذلك.

يبدو إنك لا تتابع الأخبار يا يوسف. صباح اليوم أُعلن رسميًّا تفكك الاتحاد السوفييتي.

حقًّا؟!! "يؤكد إبراهيم ورضا الخبر، فيتمتم يوسف:

" يا إلهي! "

"- انتظروا بضعة أعوام ستجدوا العالم كله قد تغير... بلد تحدث فيه ثورة، وآخر يجري فيه انقلاب، وثالث يعلن الاستقلال... إلا هذا البلد: محلك سر.

حتى بفرض أن حدثت معجزة، وثار الشعب... فالشرطة ستقمعه... ولو لم تنجح الشرطة في ذلك، فالجيش سينجح بالتأكيد.

الشعب الروسي كان محكومًا بما هو أسوأ منا كثيرًا يا رضا، وعلى الرغم من ذلك، فقد ثار وتحرر من الطغيان. "يقولها إبراهيم بهدوء وهو يطفئ عقب السيجارة، ثم يضيف: " أمثالك من اليائسين هم الذين يمنعون هذا البلد من التغيير. "

ينظر إليه رضا باسمًا باستهزاء: "أمثالي من اليائسين هم الذين يمنعون البلاد من التغيير؟! وماذا فعل أمثالك من المكافحين؟ من يريد الإصلاح يبدأ بإصلاح نفسه يا إبراهيم، بدلًا من العويل في المظاهرات ! "

يحمر وجه إبراهيم قليلًا، ويتمتم: " ماذا تعني؟

- أنت تفهمني جيدًا يا إبراهيم... هلا قلت لي لماذا تمكث بعض الملفات عندك شهرًا كاملًا، بينما تنهي أخرى في ذات اليوم؟ "

يزداد وجه إبراهيم احمرارًا، حتى أن يوسف يستعد للقيام من مكتبه؛ ليمنع نشوب مشاجرة بين زميليه. " وأنت يا حضرة المحترم، هلا قلت لي من أين اشتريت سيارتك الجديدة على الصفر؟ "

يهز رضا كتفيه ويقول بهدوء:

"لكني على الأقل لا أضيع وقتي في المظاهرات." ثم يشير إلى الترانزيستر ويضيف: "بل أقضي وقت فراغي في الاستماع إلى مباريات كرة القدم." وينفجر ضاحكًا.

* * *

العم رشاد شخصية من طراز فريد... ليس فقط لأنه فنان صبور، يقضي الجزء الأكبر من يومه - منذ إحالته إلى المعاش - في رسم لوحاته السريالية... ولكن أيضًا بسبب أفكاره الغريبة التي يطرحها في كافة المناقشات، بدءًا من الرياضة والفن ووصولًا إلى الاقتصاد والسياسية. فكثيرًا ما يفاجئ الجالسين وهم يتحدثون عن مباراة كرة قدم أقيمت البارحة، العم رشاد يبدي ملاحظة عن أحد اللاعبين أن تعبيرات وجهه في المباراة تنم عن مشكلة نفسية معينة، ويمضي في تحليل تلك المشكلة حتى يقاطعه باقي الجالسين، أو يقوموا من مقاعدهم ويتركوه وحيدًا. وبالإضافة لذلك، فإن الحشيش يلعب دورًا أساسيًا في حياة العم رشاد... فعلى الرغم من أن الحشيش قد تسبب في مسح عقول كثير من الرجال، وتدمير حياتهم الشخصية والعملية، فإنه يمنح العم رشاد قدرة غير عادية على الإبداع، والانطلاق بعقله وبفرشاة الرسم على السواء... حتى أنه لا يبدأ في رسم لوحة جديدة إلا بعد تناول سيجارة أو سيجارتين من الحشيش.

وعلى الرغم من كل ذلك، أو ربما بسبب كل ذلك، يشعر إبراهيم بميل خاص للعم رشاد دونًا عن باقي أعمامه وأخواله.

وعلى الرغم من كل ذلك، أو ربما بسبب كل ذلك، يشعر إبراهيم بميل خاص للعم رشاد دونًا عن باقي أعمامه وأخواله. فيخصه بالنصيب الأكبر من زياراته، كما يلجأ إليه بصفته حكيم العائلة حين يواجه مشكلة يستعصي عليه حلها.

يضرب إبراهيم الجرس، فيأتيه من بعيد صوت خطوات عمه المتثاقلة ودمدمته العالية (غالبًا بسبب قيامه من أمام حامل اللوحة) ، لكنه لا ينزعج، فهو يعلم طباع عمه كما يعلم حبه وترحابه الدائم بابن أخيه. يفتح العم رشاد الباب فيحييه إبراهيم، لكنه لا يرد عليه، بل يقول في لهفة:

"ها أنت قد جئت في الوقت المناسب. لقد كدت أنتهي من واحدة من أروع اللوحات التي رسمتها في حياتي... لم يبق إلا اللمسات الأخيرة. تعال لتلقي نظرة. "

يدخل إبراهيم، فيشير العم رشاد إلى رسم يجمع ما بين وجه امرأة، وإناء ورد، وشجرة نخل. يقول العم رشاد بحماس:

" استغرقت مني هذه اللوحة ما يزيد على شهرين من العمل الشاق. لكنها تحفة فنية نادرة، تليق بأكبر معارض الفن السريالي في العالم. "

" نعم، إنها رائعة بالفعل. "

يخبط العم رشاد على ذراعه . " لا تدَّع أنك تفهم الرسم. أعلم أنك لا تفقه شيئًا في الفن السريالي. لكن مادمت أقــول لك إنها جميلة فهي جميلة. "

يضحك إبراهيم في سره. يتأمــل العــم رشــاد اللوحــة بإعجاب، ثم يتوجه إلى المطبخ، ويعود بعد قليل بــسيجارتين ملفوفتين باليد. يناول إحداها إلى إبراهيم فيرفضها شاكرًا (فهو يعلم ما بداخلها). يرتمي العم رشاد في مقعد وثير في الــصالون (أو فيما يسميه هو بالصالون) ويشير إلى إبراهيم بــالجلوس على كرسٍ مجاور. تمضي دقائق من الصمت يرشف خلالها العم رشاد السيجارة بنهم واضح، ثم يسأل إبراهيم فجأة:

"- لم أرك مجددًا في أية مظاهرة بعــد المظــاهرتين اللــتين شاهدتك فيهما في التليفزيون... هل اعتزلت؟

لم يعد لدي وقت يا عمي. "تبدو الإجابة غير كافية للعــم رشاد، فيضيف إبراهيم:

"مللت من لعب دور البهلوان يا عمي. إني أكاد أجــزم أن رضوان يقرأ أخبارنا في الجرائد أثناء تناول قهــوة الــصباح، ويضحك كأننا مجموعة من المعاتيه لا خطر يُخشي منهم. بــل أني رأيت في مظاهرة "نور الهدى" ضباط الــشرطة يتبــادلون الفكاهات، وهم يتابعون المظاهرة... ثم كانت القــشة الــتي

قصمت ظهر البعير حين بدأت أشـاهد الثـورة الروسـية في التلفزيون. بمجرد سماع قوة الهتافات، والأحداث التي تتغير يومًا بعد يوم، لا بد أن يدفعك إلى اليأس من هذا البلد الخرب. "

يظل العم رشاد صامتًا وهو يدخن الحشيش، ويتابع حديث ابن أخيه باهتمام واضح. " رغم إنك لو رأيت تلك البلاد يـا عمي، لا يمكن أن تتخيل أن يثور شعبها أبدًا... بل لا يمكن أن تتخيل إن مثل هذا الشعب كان يعاني من أجل لقمة العيش... بلادهم ببيوتها وشوارعها ومحطات المترو التي تقع تحت أرضها – عبارة عن متحف كبير، تكاد تشعر أنه شعب تفرغ بأكمله للرسم والنحت. "

يتابع العم رشاد بعينيه الحمراوتين كعيني السكران... يخطف نفسًا من السيجارة، ثم يقول:

" أتعرف لماذا يعجبني الفـن الـسريالي، ولا يعجبـك؟ " يندهش إبراهيم قليلًا من السؤال، ويقول:

" – ومن قال أن الفن السريالي لا...

هذا ليس اتهامًا. أنا أسالك."

يفكر إبراهيم قليلًا في رد لا يحرجه، ولا يغضب عمه علـى حد السواء، ثم يهز كتفيه صامتًا.

"يعجبني الفن السريالي؛ لأني أفك كل شفراته... أميز كل جزئية في اللوحة، سواء كانت وجه إنسان، أو حيوان، أو سحابة، أو شمسية... كما أفهم سبب وجود كل جزء من هذه الأجزاء... فقد تمثل السمو، وقد تمثل الخيال، وقد تمثل الألم... فأنا أقرأ اللوحة كما تقرأ أنت كتابًا أو مجلة. أما بالنسبة لك، فهي مجرد مجموعة من الخيوط المتشابكة لا معنى لها... هكذا يرى الناس الحياة من على أرض بلادنا: مجرد خيوط متشابكة، يبحثون من خلالها على ثغرة ينفذون منها، فلا يجدون... منهم من يبحث عنها في خطب المشايخ... ومنهم من يبحث عنها في قصة حياة جيفارا... ومنهم من يبحث عنها في كتاب هتلر... بل وأغلبهم قد يأس من البحث عن تلك الثغرة، ووفر جهده للبحث عن قطعة خبز في سلة مهملات، أو في جيوب الآخرين... هذه هي بلادنا. "

يزفر قليلًا، ثم يقول:

" ربما تتعجب أن تسمع مثل هذه الحكم من رجل حشاش... لكن الحشيش في الحقيقة يجعلك تسبح في دنيا أعلى من هذه الدنيا، فتصبح الأرض مكشوفة أمامك كالطيار ينظر من زجاج طائرته... يقول الكثيرون أننا - نحن الفنانين (يضع يده على صدره بفخر) - مجموعة من المخابيل... لكننا في

قصمت ظهر البعير حين بدأت أشـــاهد الثـــورة الروســـية في التلفزيون. بمجرد سماع قوة الهتافات، والأحداث التي تتغير يومًا بعد يوم، لا بد أن يدفعك إلى اليأس من هذا البلد الخرب. "

يظل العم رشاد صامتًا وهو يدخن الحشيش، ويتابع حديث ابن أخيه باهتمام واضح. " رغم إنك لو رأيت تلك البلاد يـــا عمي، لا يمكن أن تتخيل أن يثور شعبها أبدًا... بل لا يمكن أن تتخيل إن مثل هذا الشعب كان يعاني من أجل لقمة العيش... بلادهم ببيوتها وشوارعها ومحطات المترو التي تقع تحت أرضها – عبارة عن متحف كبير، تكاد تشعر أنه شعب تفرغ بأكمله للرسم والنحت. "

يتابع العم رشاد بعينيه الحمراوتين كعيني السكران... يخطف نفسًا من السيجارة، ثم يقول:

" أتعرف لماذا يعجبني الفـــن الـــسريالي، ولا يعجبـــك؟ " يندهش إبراهيم قليلًا من السؤال، ويقول:

" – ومن قال أن الفن السريالي لا...

هذا ليس اتهامًا. أنا أسالك."

يفكر إبراهيم قليلًا في رد لا يحرجه، ولا يغضب عمه علـــى حد السواء، ثم يهز كتفيه صامتًا.

"يعجبني الفن السريالي؛ لأني أفك كل شفراته... أميز كل جزئية في اللوحة، سواء كانت وجه إنسان، أو حيوان، أو سحابة، أو شمسية... كما أفهم سبب وجود كل جزء من هذه الأجزاء... فقد تمثل السمو، وقد تمثل الخيال، وقد تمثل الألم... فأنا أقرأ اللوحة كما تقرأ أنت كتابًا أو مجلة. أما بالنسبة لك، فهي مجرد مجموعة من الخيوط المتشابكة لا معنى لها... هكذا يرى الناس الحياة من على أرض بلادنا: مجرد خيوط متشابكة، يبحثون من خلالها على ثغرة ينفذون منها، فلا يجدون... منهم من يبحث عنها في خطب المشايخ... ومنهم من يبحث عنها في قصة حياة جيفارا... ومنهم من يبحث عنها في كتاب هتلر... بل وأغلبهم قد يأس من البحث عن تلك الثغرة، ووفر جهده للبحث عن قطعة خبز في سلة مهملات، أو في جيوب الآخرين... هذه هي بلادنا. "

يزفر قليلًا، ثم يقول:

" ربما تتعجب أن تسمع مثل هذه الحكم من رجل حشاش... لكن الحشيش في الحقيقة يجعلك تسبح في دنيا أعلى من هذه الدنيا، فتصبح الأرض مكشوفة أمامك كالطيار ينظر من زجاج طائرته... يقول الكثيرون أننا – نحن الفنانين (يضع يده على صدره بفخر) – مجموعة من المخابيل... لكننا في

الواقع الوحيدون الذين يفهمون اللوحة كما هي... فلا عجب أن تجد الناس في الثورات يمشون ويهتفون على إيقاع لاعب الزمارة أو النفير... ولا عجب أن يكون الروس هم أقدر شعوب الدنيا على الثورة..."

يأخذ نفسًا أخيرًا من السيجارة، ثم يطفئها وقد احمرت عيناه كالسكران. "كانت علاقة الروس بالشيوعية أشبه بقصص الدراما الروسية... شوق وقتال حتى الموت من أجل المحبوب... ثم ارتماء في الأحضان وليالي من العشق... وأخيرًا كشف خبايا المحبوب، وكراهية وبغضاء بقدر عدد السنين التي عاشها الروس في حب الشيوعية. "

يضحك إبراهيم قائلًا:

" يا ليتنا يأتي علينا يوم نفيق فيه بدورنا من الغرام.

ومن قال إننا أحببنا لكي نكره؟ أننا لا نعرف من نكره، ولا ضد من نثور... بل أننا لا نعرف تحديدًا من هم الذين يحكموننا. ليتنا يا إبراهيم، كنا محكومين بهتلر... كنا قد ثرنا ضد النازية... أو كان يحكمنا لينين، فكنا قد لعنا الشيوعية من أعماق قلوبنا... لكننا للأسف محكومون بعصابة لا وجه لها... تتخفى بألف قناع... ليس لديها وقت تضيعه في الفلسفة والكتابة والأشعار... بل الأغلب أنه لا وقت لها للتفكير

أصلًا... فهي مشغولة طوال الليل والنهار بالسرقة، والنهب، والتزوير، والكذب، وإشباع الرغبات المريضة. "يعلو صوته، ولسانه مازال ثقيلًا من أثر الحشيش:

" عصابة يا إبراهيم! بل عصابات تأتي واحدة تلو الأخرى بقوة السلاح! مجرم وصل إلى الحكم على رأس دبابة، ثم تأتي عصابة لتستولي منه على الحكم، ثم يزيحها هذا الأبله؛ ليأتي لنا بعصابة جديدة... حرب عصابات كتلك التي تراها في الأفلام الأمريكية! لنا الله يا إبراهيم... لنا الله! "

يجلس العم رشاد على الأريكة، وعلامات الثورة مازالت بادية على وجهه. يظل لحظة صامتًا، ناظرًا إلى الأرض، وممسكًا بالسيجارة بيد مرتعشة، وإبراهيم لا يجرؤ على التفوه بكلمة. وفجأة، ينفجر العم رشاد ضاحكًا بشكل هستيري... يسأله إبراهيم بابتسامة تخفي شيئًا من القلق:

"ماذا يضحكك بهذا الشكل يا عمي؟ "

يواصل العم رشاد الضحك قليلًا، ثم يقول:

" أجمل ما في هذا البلد هو أنك تمضي وقتًا كما تشاء مع الحشيش بلا أدنى مشكلة..." يضحك مرة أخرى ثم يضيف بلسانه الثقيل: "فلن يفوتك الكثير. "

يخرج السيجارة من فمه، ويناولها إلى إبراهيم. يظل إبراهيم مترددًا وهو يتخيل شمس تنظر إليه بعتاب وخيبة أمل. يحــرك العم رشاد يده بعصبية قائلًا:

" هيا بك! "

يمسك إبراهيم بالسيجارة، وينظر إلى عمه بعينيه الحمراوتين وابتسامته العريضة، ثم يضع السيجارة في فمه...

٧

مر حوالي عامان على حادثة الموكب، تغير خلالها رضــوان كثيرًا... فأصبح شخصًا عصبيًا، حاد المزاج... أصبحت مديرة مكتبه تتعرض مرة أو مرتين أسبوعيًا على الأقل إلى صراخه، بل وأحيانًا إلى ألفاظ غير لائقة تترلق من لسانه... أما العــاملون بالقصر الرئاسي من الخدم، والحراس، ومسئولي النظافة، فــإهم أصبحوا يتحاشون مجرد النظر إليه، وهو يمر مسرعًا إلى مكتبه؛ حتى لا يتعرضوا إلى سيل من الصراخ والسباب. حتى أن أحداً لم يعد يجرؤ على الدخول إلى مكتبــه، باســتثناء مستــشاره المخلص الدكتور عارف.

" سيدي الرئيس، لم يتبق لنا ســوى ســتة أشــهر علــى الانتخابات. يجب أن نفكر في مضمون الحملة الانتخابية حــتى نكون على أتم استعداد. "

يعتدل رضوان في كرسيه، ويقول:

" - هذه المرة الثالثة التي أخوض فيها الانتخابــات. فمــا الجديد؟

"أخشى أن نواجه هذه المرة بعض الصعوبات. فالــصحافة أصبحت تتحدث بصورة يومية عن مشاكل الفقراء، وســكان

العشوائيات، كأن الدنيا قد خلت إلا منهم... هنـــاك صـــورة مشوهة انتقلت إلى الناس في هذا الخصوص، ويجب محاربتها.

يتمتم رضوان ببعض عبارات الضيق، ثم يقول:

"- وما الحل في رأيك؟

علينا أن نواجه هـــذه الـــشائعات، لا بـــالكلام المرســـل والشعارات الرنانة، بل بالواقع العملي... يجب أن يـــشع..."
يقاطعه رضوان بحدة:

"دكتور عارف، أرجوك اختصر. ليس لدي وقت أضيعه. "

يستأنف عارف بنفس الابتسامة، ونفس النبرة:

" لماذا لا نبدأ الحملة بزيارة لإحدى العشوائيات؟ زيـــارة عادية تمامًا، بلا تكلف ولا لقاءات مع مسؤولين... بل لقـــاء مباشر مع عامة الناس."

يسكت لحظة؛ ليزيد من اهتمام رضوان، ثم يضيف:

"لماذا لا نبدأ بضاحية "عزبة الكبش" على سبيل المثال؟"

"عزبة الكبش؟" لقد سمع رضوان هذا الاسم مـــن قبـــل... تظهر في ذهنه لقطات بعيدة لشوارع طينية ضـــيقة، ولـــبعض الصبية يجرون بأرجل حافية في مياه راكدة.

"- هل تعتقد حقًا أنها فكرة صائبة؟

بالطبع يا سيدي الرئيس. سيكون ذلك دليلًا قاطعًا على اهتمامك بالفئات المهمشة في المجتمع."

يظل رضوان مترددًا، فيضيف عارف:

" إنها المرة الأولى منذ عدة أعوام التي نزور فيها العشوائيات... لا تنس يا سيدي الرئيس، أن خصومنا يدعون أنهم يهتمون وحدهم بشؤون الفقراء. لا يجب أن ندعهم يرفعون مثل تلك الشعارات في الانتخابات. "

يطرق رضوان، ويشرد بنظره قليلًا. " لكن ألا تعتقد أن بالأمر خطورة؟ لقد سمعت يومًا أن ثمة تجار مخدرات يسيطرون على بعض هذه المناطق. "

يومىء عارف برأسه بالإيجاب، ثم يقول:

" هناك بالفعل عصابات من تجار المخدرات يسيطرون على "عزبة الكبش" . لكننا سنقوم بتأمين الموكب لأقصى درجة. كما أننا سنتفادى المناطق الأكثر خطورة، وسنمر قدر الإمكان بالشوارع العريضة. المهم أن يعرف الجميع أن سيادتك قد ذهبت بنفسك إلى " عزبة الكبش" حرصًا على الاقتراب من الطبقات الكادحة، والإحاطة بمشاكلهم اليومية. "

يضحك رضوان ضحكة مقتضبة، ويقول باسمًا:

" سيكون عنوانًا ممتازًا في الجرائد."

ينقر بأصابعه قليلًا على المكتب، ثم يقول:

" حسنًا. فلنبدأ ''بعزبة الكبش'' ".

* * *

تنعطف السيارة يمينًا خلف سيارة الحرس في حارة ضـــيقة، تتبعها باقي سيارات الموكب. يشعر رضوان بهزة بسيطة عندما تنزل السيارة من مستوى الإسفلت إلى مستوى الأرض الترابية. ومع الانعطاف والهزة، يتغير المشهد من خلف زجاج الـــسيارة تغيرًا تامًا. فما أن تختفي المباني العالية التي تقع على الناصية عن النظر، حتى تظهر بيوت من طابق واحد مصنوعة من الطـــوب اللبن. لكل منها تصميمه الخاص، فبعضها يعلوه ســـقف مـــن البلاستيك، وفي البعض الآخر وُضعت قطع من الكارتون لسد فجوات الباب، كما دهن بعض السكان شيش نوافذهم باللون الوردي الفاتح، فيما يبدو على سبيل الزينة. لا يجمع بينـــها إلا التراب الذي صبغها كلها بلون واحد تقريبًا، والنوافذ المغلقة في كل البيوت (باستثناء بعض البيوت التي ليست بها نوافذ بالمرة).

الشوارع خاوية إلا من بعض الرجال يقفون هنا وهنـــاك، يبدون في انتظار شيء أو شخص ما. يتعرف رضـــوان علـــى

بعض تلك الوجوه... إنهم مخبرون على ما يذكر. يسأل رضوان رئيس الحرس الجمهوري معاتبًا:

" لماذا منعتم المارة؟ ألم أقل بتأمين الموكب دون أن يُمنع الناس من الاقتراب؟ ستكون الزيارة عديمة الفائدة إذا ظلت المنطقة خاوية هكذا! "

يرد الرجل بهدوء:

" لقد اتخذنا هذا الاحتياط في الطريق فقط يا سيدي الرئيس، فهذه الحواري الضيقة يصعب تأمينها بالقناصة. حين نصل إلى الشارع الرئيسي ستجده مكتظًا بالمارة. "

يدير رضوان نظره إلى النافذة حيث البيوت المغلقة والحواري المظلمة التي تتقاطع مع الطريق. ترى كيف يبدو الناس الذين يقطنون هذه البيوت، وتلك الحواري؟ لعل أقرب صورة في ذهنه هي صورة أهل قريته... نعم، فسكان هذه المناطق ينحدرون من أصول قروية على أغلب الظن... يحاول رضوان استعادة وجوههم، وملابسهم، ولهجتهم الريفية... يا إلهي! كم تبدو هذه الذكريات بعيدة... والسيارة تقترب... ولم يبق إلا بضع دقائق تفصله عن اللقاء.

* * *

تقف السيارة في شارع عريض نسبيًا، يتميز عن الحواري الطينية بالإسفلت المتهالك الذي يغطيه. يترل رضوان من السيارة فيجد صبيًا في حوالي السابعة من عمره، يرتدي خفًا وشورتًا بنيًا وقميصًا ارجواني اللون تغطيه بقع من الطين، يقف وحده ممسكًا بكرة من البلاستيك. لعلها فرصة جيدة أن تبدأ الزيارة بلمحة أبوية يديها للطفل حتى يظهر حسن نواياه لأهل المنطقة. يقترب من الصبي فيستدير إليه هذا الأخير ببرود... وجهه خمري يتصبب عرقًا ويغطيه الطين أكثر مما يغطي قميصه. يسدد إلى رضوان نظرة حادة بعينيه العسليتين، وحاجبيه الصغيرين المقطبين. يقترب رضوان أكثر ويبتسم له، لكن الصبي يظل متجهمًا كالتمثال. يقاوم رضوان تقززه ويمد يده إلى رأس الصبي، فيمسح على شعره الأسود اللزج بيد مرتعشة. يلتقط له المصور لقطة، ثم يسحب يده مسرعًا.

الارتياح. هل بلغ به العجز والضعف أن يخاف من طفل في السابعة من عمره ينظر إليه بوقاحة؟

يترك رضوان الصبي، ويمضي إلى الجهة الأخرى من الشارع، حيث تجمع عدد لا بأس به من المارة. بعضهم يتحدثون فيما بينهم بصوت غير مسموع، وبعضهم يضحكون دون سبب واضح، وآخرون ينظرون إليه نظرات غريبة. يحاول تذكر

الكلمة التي أعدها، ثم يقف على بعد أمتار من الحشد. ينتظـــر حتى يقترب منه الميكروفون، ويقف المصور في مواجهتـــه، ثم يقول بصوت عالٍ:

" لقد جئت لزيارة أهل "عزبة الكبش" الطيبين، لأعبر لهـــم عن احترامي وتقديري وإصراري على تلبية كل حاجـــاتهم. إن البلاد مقبلة على فترة جديدة، نتمنى أن تكون أكثر رخـــاءً و يسرًا. ومن أجل ذلك، علينا أن نتعاون معًا بهدف القضاء على الفقر والمعاناة في الطبقات الكادحة من المجتمع. لـــذلك، فقـــد حرصت على أن أستمع بنفسي إلى مطالبكم وشكواكم. "

ينظر المحتشدون بعضهم إلى بعض نظرات غامضة... يصيح أحدهم فجأة:

" يا سيادة الرئيس نحتاج إلى حفر مجاري في المنطقة... إننـــا نضطر إلى إلقاء مخلفات المرحاض في الشوارع ."

يبدو الطلب غريبًا بالنسبة لرضوان؛ فكان يتوقع شيئًا مـــن فرص عمل، أو بناء مستشفيات، أو ما إلى ذلك. يتلعثم قليلًا، ثم يقول:

" إذًا فأول ما سأقوم به بعد الفوز بالانتخابات، هو أنـــني سأشمر عن ساعدي، وأقوم بحفر المجاري." يـــضحك ضـــحكة

تقف السيارة في شارع عريض نسبيًّا، يتميز عن الحـــواري الطينية بالإسفلت المتهالك الذي يغطيه. يترل رضـــوان مـــن السيارة فيجد صبيًّا في حوالي السابعة من عمره، يرتدي خفًـــا وشورتًا بنيًّا وقميصًا ارجواني اللون تغطيه بقع من الطين، يقف وحده ممسكًا بكرة من البلاستيك. لعلها فرصة جيدة أن تبـــدأ الزيارة بلمحة أبوية يبديها للطفل حتى يظهر حسن نواياه لأهل المنطقة. يقترب من الصبي فيستدير إليه هذا الأخير بـــبرود... وجهه خمري يتصبب عرقًا ويغطيه الطين أكثـــر ممـــا يغطـــي قميصه. يسدد إلى رضوان نظرة حـــادة بعينيـــه العـــسليتين، وحاجبيه الصغيرين المقطبين. يقترب رضوان أكثر ويبتسم لـــه، لكن الصبي يظل متجهمًا كالتمثال. يقاوم رضوان تقززه ويمـــد يده إلى رأس الصبي، فيمسح على شعره الأسود اللـــزج بيـــد مرتعشة. يلتقط له المصور لقطة، ثم يسحب يده مسرعًا.

الارتياح. هل بلغ به العجز والضعف أن يخاف من طفل في السابعة من عمره ينظر إليه بوقاحة؟

يترك رضوان الصبي، ويمضي إلى الجهة الأخرى من الشارع، حيث تجمع عدد لا بأس به من المارة. بعضهم يتحدثون فيمـــا بينهم بصوت غير مسموع، وبعضهم يضحكون دون ســـبب واضح، وآخرون ينظرون إليه نظرات غريبة. يحـــاول تـــذكر

الكلمة التي أعدها، ثم يقف على بعد أمتار من الحشد. ينتظـــر حتى يقترب منه الميكروفون، ويقف المصور في مواجهتـــه، ثم يقول بصوت عالٍ:

" لقد جئت لزيارة أهل "عزبة الكبش" الطيبين، لأعبر لهـــم عن احترامي وتقديري وإصراري على تلبية كل حاجـــاتهم. إن البلاد مقبلة على فترة جديدة، نتمنى أن تكون أكثر رخـــاءً و يسرًا. ومن أجل ذلك، علينا أن نتعاون معًا بهدف القضاء على الفقر والمعاناة في الطبقات الكادحة من المجتمع. لـــذلك، فقـــد حرصت على أن أستمع بنفسي إلى مطالبكم وشكواكم. "

ينظر المحتشدون بعضهم إلى بعض نظرات غامضة... يصيح أحدهم فجأة:

" يا سيادة الرئيس نحتاج إلى حفر مجاري في المنطقة... إننـــا نضطر إلى إلقاء مخلفات المرحاض في الشوارع ."

يبدو الطلب غريبًا بالنسبة لرضوان؛ فكان يتوقع شيئًا مـــن فرص عمل، أو بناء مستشفيات، أو ما إلى ذلك. يتلعثم قليلًا، ثم يقول:

" إذًا فأول ما سأقوم به بعد الفوز بالانتخابات، هو أنـــني سأشمر عن ساعدي، وأقوم بحفر المجاري." يـــضحك ضـــحكة

عصبية، فلا يضحك معه إلا رئيس الحرس. يبدو إذًا أن الرجل لم يكن يمزح.

سيدة أخرى تقول:

" زوجي كان عاملًا بمصنع التبغ، وهو الآن على المعاش... المعاش الذي يحصل عليه يكفينا بالكاد في الأسبوع الأول... وباقي الأسبوع نتسول... هذا إن وجدنا من نتسول منه."

" سنعمل على زيادة المعاشات."

سيدة أخرى في مثل سنها تضيف:

" هذا إن حصلنا على المعاش كاملًا... فالعصابة التي تسيطر على المنطقة تستولي على نصفه. وإذا رفضنا، أو اكتشفوا أننا نحصل على معاش دون علمهم، فإنهم يصبون علينا جام غضبهم... الأسبوع الماضي قاموا بحرق منزل جارتي؛ لهذا السبب."

"عليكم بإبلاغ الشرطة."

يصيح رجل في حوالي الخمسين من العمر:

" الشرطة؟! يا سيدي الرئيس، الشرطة هي أول من يحصل على الإتاوات! "

يشعر رضوان برعشة تدب في جسده، وبأصابع يديه تتصلب، يقف كالقنفذ مستعدًا لنفش شوكه في مواجهة العدو. ينظر إلى الكاميرا، ويقول بحزم:

" هذا افتراء على الشرطة. الكل يشهد على أن رجال الشرطة يقومون بواجبهم على أكمل وجه. "

" وماذا تعرف أنت عن المنطقة؟ متى زرتها قبل ذلك؟" ينظر رضوان إلى مصدر الصوت، فيجد شابًّا ضخم الجثة، مفتول العضلات - على خلاف باقي الحاضرين.

يبتلع رضوان ريقه، ثم يقول:

" كيف أكون رئيسًا لهذا البلد، وأنا لا أعلم بكل ما يدور فيه ... حتى لو لم آت بنفسي منذ فترة، فإني أتابع تقارير المحافظين والمحليات التي تصلني بـ ..." يقاطعه الشاب بحدة، وهو يخترق الجمع مقتربًا من رضوان: " أي تقارير تتحدث عنها؟ تقارير المخبرين والشرطة؟ أم تقارير الحكومة التي تردد لك كل ما تحب أن تسمعه ؟" يقترب الشاب أكثر من اللازم، فيسرع خمسة من رجال الأمن بينه وبين رضوان، ويمسك أحدهم بذراعه. يصيح الشاب وهو يشير إلى رضوان بغضب، واللعاب يتطاير من فمه:

" ألم تلتقط الصور التي جئت من أجلها؟ ارحل عنا الآن! "
يدفعه رجال الأمن بعصبية، فيتقهقر الشاب لبضعة أمتـــار، ثم يختل توازنه ويسقط على الأرض. يقوم مرة أخرى لينقض على رجال الأمن، وهو يصرخ كالثور الهائج:

" تبًّا لكم! "

في هذه اللحظة تنطلق رصاصة. لا يعرف رضـــوان مـــن أطلقها، ولا لماذا انطلقت... لكنها تستقر في صدر الـــشاب. تجحظ عيناه، ويصرخ بصوتٍ يخرج من أعماق حلقه كالخوار:

" تباً ! "

يسقط الشاب على الأرض... تصرخ النـــسوة، ويتحفـــز الرجال... يأتي صوت من نافذة إحدى المنازل:

" لقد قتلتم أخي أيها السفلة! "

تتحول جميع الأنظار إلى النافذة، فتجد شابًّا أسمـــر يختفـــي مسرعًا من النافذة. تمضي ثوان، والكل قد تسمر في مكانه، ثم يخرج الشاب، وفي يده كلاشنكوف... يبادره الحرس بإطلاق النار، إلا أنه ينجح في إصابة أحدهم في كتفه قبل أن يـــسقط على الأرض مصابًا هو الآخر. يمسك رئيس الحـــرس بمعـــصم رضوان، ويتجه به مسرعًا إلى السيارة، إلا أنه يفاجأ بمجموعة من الأهالي يتصدون لهما، وهم يطلقون الـــسباب واللعنـــات.

يهددهم رئيس الحرس بالمسدس، فيبتعد بعضهم، بينما يظل البعض الآخر واقفًا. في الآن ذاته، تتدفق جيوش من شباب المنطقة، تخرج من كل مكان كالحشرات الزاحفة... تخرج من الحواري، والبيوت، والورش، والدكاكين، وهي محملة بالكلاشنكوف، والسكاكين، والعصا، وتصيح بكلمات غير مفهومة. يستغل الأهالي البلبلة التي أحدثتها تلك الجيوش؛ لتزيد من تضييق الخناق على رضوان، حتى يتحول الأمر إلى حصار فعلي. بل أن بعض المحاصرين يحاولون الإمساك برضوان، الذي لم يعد يحميه سوى رئيس الحرس، وحارسين آخرين نجحا في التسلل ما بين الأهالي. لم يعد رضوان يرى حوله إلا تلك الأعين الجائعة، والشفاه التي تكشر عن أنيابها التي سبق أن رآها ذات ليلة في المنام... ينطلق الرصاص في كل مكان، من مسدسات الحرس، ومن بنادق القناصة، ومن الكلاشنكوف التي يحملها الشباب... بعضها في صدور الحرس، وبعضها في صدور الأهالي، وبعضها في الهواء... يسقط بعض المحاصرين صرعى على الأرض، فيحاول الحرس استغلال الثغرة لإخراج رضوان، إلا أن رصاص الكلاشنكوف يفاجئهم، وينهال عليهم... تصطدم رصاصة بالسترة الواقية التي يرتديها رضوان... ثم الثانية... ثم الثالثة... ثم تأتي رصاصة كتلك التي أصابت الشاب. لا يعرف من أطلقها... ولا لماذا انطلقت...

تخترق السترة الواقية لتستقر بين ضلوعه اليسرى... تدور بـــه الدنيا، فيشعر أنه يطير إلى أعلى... وأنه قد خلع البدلة، ورابطة العنق، وعاد من جديد طفلًا يلعب في الحقول...

٨

" أستاذ إبراهيم! أستاذ إبراهيم!"

يلقي إبراهيم بالآلة الحاسبة على مكتبه، ويستدير بعصبية إلى الساعي.

" ألم أحذرك مسبقًا من أن تزعجني لأي سبب كان حين أكون مشغولًا؟"

يرد الساعي العجوز بين أنفاس متقطعة، كما لو أنه كان يجري لمسافة كيلومترات:

" – عفوًا يا أستاذ إبراهيم، لكن هناك شخصًا ما على الهاتف عند سكرتارية سيادة المدير يريد التحدث إليك.

مكالمة لي أنا؟ من هذا الشخص؟

لم يفصح. لكنه قال أن الأمر في غاية الأهمية. "

يقوم إبراهيم من كرسيه متأففًا، فلا بد أنه ابنه خالد الذي اعتاد أن يزعجه في المصلحة من أجل تصفية مشاجراته المعتادة مع أخيه الأكبر... وفي كل مرة لا بد له أن يؤكد على أهمية المكالمة .

يدخل إبراهيم مكتب السكرتارية، متحفزًا لتأديب ابنه المشاغب، وينتزع سماعة التليفون من يد السكرتيرة.

" آلو ؟!!"

يأتيه صوت غريب يتحدث باقتضاب واضح.

"- أستاذ إبراهيم؟

.... نعم. أنا إبراهيم.

هنا رئاسة الجمهورية، سيادة الرئيس يريد م...

رئاسة الجمهورية؟! نعم . "يقولها بحسم كافٍ لتبديد أي شكوك في نفس إبراهيم. "سيادة الرئيس في المستشفى، ويريد مقابلتك الآن. ستأتي سيارة في خلال دقائق لتقلك إلى المستشفى. "تسري رعشة قوية في جسم إبراهيم.

هل لي أن أعلم بالموضوع ؟ " يغلق الرجل السماعة قبل أن يتم إبراهيم سؤاله.

* * *

يضرب إبراهيم على الباب برفق، فيأتيه صوت نسائي يأذن له بالدخول. يفتح الباب ببطء؛ لكي يمنح لذراعيه وساقيه فرصة إضافية لتتوقف عن الارتعاش. يدخل إبراهيم فيجد الرئيس في مواجهته مباشرة مستلقيًا على الفراش... هو الرئيس

كما رآه من قبل مرارًا في التليفزيون والجرائد، وإن كان يبدو أكبر بعشرات السنين. على الكرسي المواجه للباب تجلس زوجته ليلى، وعلى كل جانب من الفراش يجلس طبيب، أحدهما في منتصف العمر، والآخر أكبر قليلًا... بجوار الطبيب الشاب جهاز لقياس ضربات القلب، متصل برسغ الرئيس. على الأريكة يجلس ابنه عامر مكتوف اليدين ناظرًا إلى الأرض. يظل إبراهيم واقفًا لا يدري ماذا يفعل، ثم ينحني انحناءة صغيرة، وهو يتمتم بكلمات التحية. لا يرد عليه إلا الرئيس والطبيبان، بينما يبقى عامر وليلى صامتين.

يحاول إبراهيم أن يتحاشى نظرات الرئيس، هاربًا بعينيه إلى جدران الغرفة البيضاء، واللوحات الزيتية المعلقة عليها. يكاد يقفز من مكانه حين يسمع صوت غريبًا مكتومًا يدعوه إلى الجلوس. يبحث عن مصدر الصوت، فيجد الرئيس الذي يشير إلى كرسي بجوار الطبيب الأكبر سنًّا. يجلس إبراهيم، ومازال يحاول تحاشي نظرات رئيسه. يعتدل رضوان على الوسادة بصعوبة ثم يقول:

" لا تتعجب إن كنت تراني في هذا الحال... فمن المفترض أن أكون في عداد الموتى." لا ينطق إبراهيم. يشعر بما يشبه رعشة كهربائية تسري من أعلى رأسه إلى أسفل قدميه. " كنت في زيارة إلى (عزبة الكبش) ، وحدثت مشادة مع أهل

المنطقة، فأطلق أحدهم عليَّ رصاصة... استقرت هنا. " (يشير إلى الجزء الأيسر من صدره) . يسكت رضوان، وهو يجز على أسنانه من الألم. يستغل إبراهيم برهة الصمت؛ حتى يحاول استيعاب تلك الأحداث التاريخية التي قصها عليه رئيسه في كلمات معدودة...

يسعل الرئيس قليلًا، ثم يستأنف:

" الرصاصة لا تبعد عن القلب سوى بضعة مليمترات... لذلك لم ينجح الأطباء في إخراجها، وإلا قتلوني على الفور. " يسعل مرة أخرى ثم يستطرد: "أعطوني بعض المسكنات... بعض الكبسولات من أجل أن أقضي آخر ساعات عمري سعيدًا." يشعر إبراهيم بنفس الرعشة تجتاح جسمه مرة أخرى. " ستكون غالبًا شاهدًا على لحظاتي الأخيرة. " يضم إبراهيم يديه المتخشبتين على مسندي الكرسي، كما لو أن الجملة الأخيرة قد جعلته يشعر بوجوده لأول مرة منذ أن دخل هذه الغرفة. يتذكر فجأة أنه لا يعلم شيئًا عن سبب تواجده في هذا المكان. يزفر قليلًا ثم يسأل على استحياء:

" سيدي الرئيس، هل لي أن أعرف عن سبب استدعائي؟ "

يعض رضوان شفتيه، وينظر إلى الأرض مفكرًا، كما لو أنه يبحث عن أسلوب لبق يشرح به سبب هذا الاستدعاء المفاجئ، ثم يقول بصوته المبحوح:

" قضيت أربعة عشر عامًا في الحكم، لم يعرفني خلالهـا إلا الشيخ الصاوي. لم أشاهد نفسي إلا في مرآة هذا الرجـل... أردت أن أرى نفسي في مرآة أخرى قبل أن أقابل وجه ربي... لا أعرف إن كان الندم ينفع في مثل هذه اللحظات، لكني أريد أن أرى نفسي. وأن تروا جلال رضوان الحقيقي، وليس ذلك الذي كنتم تشاهدونه في التلفزيون والجرائد."

يلقي نظرة طويلة متفحصة على إبراهيم، كما لو أنه يحاول الوصول إلى البغض الذي يقبع في أعماق صدره، لا يستره إلا هيبة الموقف، وعبارة "سيدي الرئيس" .

"- أعلم أني المسؤول عن وفاة زوجتك..." يسكت الرئيس قليلًا، كأنما يحاول أن ينتقي كلماته. تبـدو الجملـة مـستفزة لإبراهيم... فأمثال هذا الرجل لا يؤمنون بالله بطبيعة الحـال، ولا يعرفون معنى الشهادة... لا يعرفون أن من يموت شهيدًا هو حي يرزق عند ربه... وبالطبع لن يخطر بباله أن من ماتـت في موكبه قد تحسب عند ربها شهيدة.

يستأنف الرئيس:

لكن ها أنت قد ثأرت لنفسك... فسوف أموت بعد بضعة ساعات على الأكثر، مقتولًا على يديك.

- يدي أنا؟!!

يومئ الرئيس برأسه، كما لو أنه يؤكد على حقيقة واقعة.

طوال أربعة عشر عامًا قضيتها في الحكــم، كنــت لا أرى الناس إلا وهم جالسون يتناولون طعامهم، وأعينهم لا تفــارق أطباقهم وملاعقهم... لم أرها أبدًا ترتفع لتنظر إلي... لتشكو، أو تأن، أو حتى تتوسل... تعاملت معها بمبدأ السكوت علامة الرضا. ثم صرخت أنت يوم ماتت زوجتك في سيارة الإسعاف في وسط الزحام... كانت صرختك عالية مدوية إلى الدرجــة التي جعلت الأيادي تلقي بالملاعق والسكاكين، وجعلت الأعين تنظر إلى أعلى بكل ما كانت تخفي من غلّ، نما وكبر في هدوء على مر السنوات... كم كانت قاسية تلك اللحظة يا إبرهيم."

يسكت الرئيس محاولًا التقاط أنفاسه مرة أخرى... ينظــر إبراهيم إلى رئيسه منبهرًا... فلم يكن يظنه أبدًا فيلسوفًا... كان يظنه دائمًا رجلًا باردًا قاتمًا، لا هواية له في الحياة إلا عد الملايين التي ينهبها من بطون شعبه الجوعان. يدور بنظــره في الغرفــة البيضاء المغلقة، حيث يجلس مع رئيس جمهورية الــبلاد، وإلى ليلى وعامر اللذين يجلسان صامتين كالأصنام... شيء ما، ربما في الجدران البيضاء الصماء، أو في غرابة الموقــف، أو ربمــا في الصراحة التي يتحدث بها الرئيس، تمنحه جرأة غير عادية. ينظر إلى رضوان مباشرة، ويقول متكئًا على كل حرف:

" إذا مت مقتولًا يا سيادة الرئيس، فلا تلومن إلا نفسك... لقد فعلت بشعبك ما يستحق القتل... بل وما هو أكثر من القتل. "

يسدد عامر إليه نظرة قاتلة، بينما لا يبدو الرئيس مصدومًا من الجملة. يضم يديه على بطنه، وينظر إلى الأرض كأنه طفل يعترف بخطئه أمام مدرسه، ويقول:

" أعلم أني سوف أُسأل عن الكثير والكثير أمام ربي... لكن الله يعلم أني كما كنت ظالمًا، كنت مظلومًا. لقد وجدت نفسي مغمض العينين بين براثن عصابة... عصابة بكل معنى الكلمة يا إبراهيم... وضعوني في منصب لا أعرف عنه شيئًا، وطلبوا مني أن أوقع على أوراق لا أعرف عنها شيئًا، لأعيِّن وزراءً، ومحافظين لا أعرف عنهم شيئًا... وجدت نفسي أقود شعبًا بأكمله وخبرتي في القيادة لم تكن تتعدى قيادة فرقة من فرق المشاة... إبراهيم لقد عشنا جميعًا كمجموعة من الغرقى وضعت على أعينهم عصابات... لا يعرفون الشرق من الغرب، أو اتجاه الشاطئ من أعماق البحر... إني أشكرك يا إبراهيم، إنك قد نزعت عني العصابة بالضجة التي أحدثتها في البلاد... على الأقل حتى أرى اتجاه الشمس قبل أن أغوص في قاع المحيط... ولأرى كم كنت بعيدًا عن الشاطئ. "

يشهق الرئيس بعمق، فيسرع الطبيب الشاب بإدخال القسطرة في فمه لسحب الدماء المتراكمة فيه. يخرج الطبيب القسطرة، ويستعيد رضوان نفسه ثم يستأنف:

"- أما أسوأ شيء، وأنت في قاع المحيط والعصابة على عينيك هو أنك تظن نفسك دائمًا سابحًا تجاه الشروق... أو تجاه الشاطئ." يسكت قليلًا مغمضًا عينيه؛ كي يلتقط أنفاسه ثم يقول:

"...وأعتقد أن كلًّا منا وهو يمضي في طريقه مع التيار، كان يظن نفسه متجهًا إلى الشاطئ... أنت موظف حكومي يا إبراهيم، ولا يخفى على أحد كيف يعيش الموظف الحكومي... هل سألت نفسك يومًا وأنت تصلي، عن درج مكتبك الذي لا بد وأنك تفتحه لسد ميزانية آخر الشهر؟

- أخشى يا سيدي الرئيس أنك مازالت لا ترى الشاطئ بعد أن نزعوا العصابة عن عينيك... فكيف تساوي بين ما فعلت بشعبك، وأنت رئيس لمدة أربعة عشر عامًا، وبين ما يقوم به موظف بائس سدًّا للرمق؟

يزفر رضوان قليلًا، ثم يقول:

" إنها يد القدر يا إبراهيم... لم تلدني أمي حاكمًا مستبدًّا، ولم تلدك موظفًا بائسًا... كنت طفلًا ألعب الكرة في الحقول

مثل ملايين الأطفال... وربما نكون قد لعبنا سويًّا في يوم ما... شاء القدر أن يجعل منك موظفًا في مصلحة الضرائب، وشاء أن يوقعني في أيدي عصابة تسمي نفسها بـ"حراس الشعب"... لأصبح رئيسًا في زمن لا حق فيه ولا باطل... ولو شاء القدر هذا المصير لطفلٍ آخر غير جلال رضوان، لما تغير من الأمر شيء. "

يقول إبراهيم بابتسامة قاسية:

" ما أحلى أن تسبح مع التيار، وأنت رئيس للجمهورية تلعب بالملايين والمليارات... وألا تكتشف الطريق الصحيح إلا بعد فوات الأوان! "

يتجاهل الرئيس سخرية إبراهيم، ويقول بابتسامة حزينة:

"على كل حال ما هي إلا ساعات على الأكثر، وأترك لكم هذه الدنيا بأكملها. "

" — سترحل يا سيدي الرئيس، لكن هذه العصابة لن ترحل معك. مازلت أسمع أنفاسها تتردد في كل مكان... " يطرق قليلًا، ثم يستأنف:

" لو كنت أتكلم مثل عمي رشاد، لقلت لك أن هذه العصابة قد أخفت كل شفرات اللوحة السريالية التي نعيش